جامعة طنطا
كلية الآداب

الراغب الأصفهانى ومنهجه فى كتاب المفردات

دكتور
عباس محمد عبد الحميد

جامعة طنطا
كلية الآداب

الراغب الأصفهاني ومنهجه في كتاب المفردات

دكتور
عباس محمد عبد الحميد



اهداء

الى استاذى العزيز

الاستاذ الدكتور / حسن ظاظا

تحية وفاء وعرفان بالجميل ، ودعوة الى الله ان

يرد غربتك التى طالت

لتعود لنا كما كنا صحبة ورفقة .....

المدخل

ما كدت أتم دراستي الجامعية،حتى اتجهت الى متابعة الدراسة العليا ابتغاء الإسهام في تجلية بعض الجوانب العلمية التي أغفلها الدارسون قديما والتي تتمثل في بعض الشخصيات التي صنفت تاريخنا العلمي والثقافي عامة،وأرخت في بعض جوانب ثقافتنا وتراثنا أرساخا ما زالت أمامنا الى اليوم،نتناولها،ونرجع اليها،دون أن نهتم باعطائها حقها من الدراسة التي لاقاها أمثالها من الأعمال وربما دونا منها .

وكان أن دفعني الى دراسة الراغب الاصفهاني ان هذا الرجل استطاع فيما أقدر أن يدرك الأصول التي نهض عليها الاختلاف بين المذاهب والفرق الدينية التي اتجه فيها أصحابها إلى النص القرآني يتخذون منه سندا لما يذهبون اليه ودعامة تؤصل مذاهبهم،وكأنها جميعها مما يمكن أن يدل عليه النص القرآني . كذلك استطاع الراغب أن يشرك العقل في فهم النصوص الدينية والاستفادة بكل طاقاتها،فترك بذلك دراسة رفيعة المستوى حتى كأنه سبق عصره في وقت تشعبت فيه المسالك والاتجاهات والتنوع، فدرس الاصول وانقسام أهلها الى متكلمين وغير متكلمين ـ كما أنه عاصر حركات الصوفية التي أضافت إلى الألفاظ القرآنية دلالات بعيدة عن دلالاتها الأصلية،لا يفهمها الا من سار في تيارهم،وأخذ بتقاليدهم واختلاف الناس عليها من منكر لها ومن مؤيد،والراغب وسط هذا الخضم واعيا ناقدا لما يراه مدافعا عن النص الديني مؤيدا لما يراه قد أصاب،شارحا دالا على موطنه،وقد ظهر هذا واضحا في كل مؤلفاته

والذي زاد من قيمة أعمال الراغب في نظرنا،هو بعده عن اي اتجاه سياسي،فقد عاش طوال حياته لم يرتبط بأي اتجاه سواء أكان دينيا أم سياسيا في مؤلفاته،بل كان في كثير من الأحيان يحاول جاهدا اخفاء ما بنفسه من أحاسيس لا يصرح بها وان كان

يكنى عنها وعلى هذا أهمله المؤرخون ولم يؤرخوا له . (١)

وبجانب هذا فان الرجل كذلك لم يكن من رجال الدولة أو مشايعا لأمير أو نديما له (٢) كما كان الرجال في ذلك الوقت يوزنون بضخامة أعمالهم من ناحية، وارتباطهم الديني أو السياسي من ناحية أخرى، فكان مؤرخو كل فئة تقوم بما نسميه اليوم بأعمال الدعاية، أما بالنسبة للراغب فقد اختلف الأمر عليه، فلم يجد من يعنى بأعماله ويقوم بنشرها والترويج لها من مؤرخي الفرق، فبقي وحيدا في الميدان بعد أن تحير المؤرخون في أمره، فنسبوه مرة الى الاعتزال، ومرة الى الشيعة (٣) ومرة الى السنة، ووسط هذا الخلاف، وأمام هواه لأهل البيت المكنى عنه في مؤلفاته وان لم يصرح به - تلقفه علماء الشيعة فعدوه شيعيا وأرخوا له في كتبهم وعدوه من حكماء الشيعة . (٤)

بهذا الاختلاف عليه، ومع عزوفه عن المشاركة في الأحداث السياسية والاجتماعية، أهملت مؤلفاته، فلم تلق أى نوع من الدراسة، وترك الأمر كل ينظر على هواه، فمن كان سنيا وجد بغيته، ومن كان شيعيا وجد هواه ... وبهذا استطاعت بعض مؤلفاته أن تشق الطريق وتصل الى الناس كمؤلفات علمية فقط (٥) ومادة يحتاج اليها الدارسون، وأصبحت كتبه علما عليه فكان يطلق عليها اسمه مثل : مفردات غريب القرآن أصبح يطلق عليه مفردات الراغب، وكتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء اصبح يسمى محاضرات الراغب، وكذلك كتاب الأخلاق الذى اصبح يعرف باسم اخلاق الراغب (٦)

والواقع أن مشكلة الاختلاف بين أصحاب المذاهب سواء أكانت مذاهب في الاعتقاد أم في التشريع العملي التطبيقي الممثل في الحركة الفقهية على اختلاف مسالك أصحابها فيها، تعتمد أصلا على اللغة وعلى ما أصابها من تطور دلالي عبر العصور المختلفة

---

١ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٨
٢ - نفس المصدر السابق
٣ - أعيان الشيعة / العاملي ، ص ٢٢٠
٤ - نفس المصدر السابق
٥ - دائرة المعارف الاسلامية / مادة راغب
٦ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ، ص ٢٧١

التى مرت بها الحياة العربية اذ كانت هذه اللغة تمتاز بتاريخها الطويل الذى عاصر حضارات وخالط ثقافات وتكلمت بها أجناس مختلفة فى الفكر والثقافة، ومن هنا أصاب ألفاظها كثير من التطور فى دلالاتها . واذا كانت المعاجم العربية تحاول جهدها أن تضع أيدينا على مسالك هذا التطور ومذاهبه فانها لم تستطع ان تلحظ ذلك الجانب التاريخى الذى يبين التطور للدارسين وما يصدره من أحكام على هذا التاريخ ، ذلك أن هذه المعاجم اختلفت باختلاف ثقافات اصحابها من لغوية ودينية وسواهما، ولعل ذلك كان السبب فى هذا الاضطراب الذى ساد حياة هذه المعاجم، والذى وقف سدا بين الباحث عن التطور الدلالى وبين اللغة ، فهذه المعاجم التى حفل بها تاريخ اللغة العربية لم تحو كل اللغة، ذلك أن هؤلاء المصنفين لم يقوموا بجمع كل مفردات اللغة بل كانوا يجمعون الفصيح منها ، فكان من أثر هذا أن ضيقوا على أنفسهم المنافذ والمسالك فى أخذ اللغة وتلقيها الا ممن تتوافر فيهم شروط الغلو فى الاعراب(١) ، فضيعوا بذلك فرصا عديدة على باحثى اللغة المحدثين، أهمها فرصة عمل المعجم اللغوى التاريخى الذى هو أهم مميزاته أن يكون حاويا كل الكلمات المتداولة فى اللغة حيث أن لها حقوقا متساوية فيها (٢) .

وقد واجه أ - فيشر هذا حين تصدى لعمل المعجم اللغوى التاريخى الذى - يجمع ألفاظ اللغة ويؤرخ لها ويكشف عن خطى التطور التى مرت بها، فيقول فى المقدمة (٣) (ان النقص المهم فى المصطلحات التى صنفها العرب يرجع الى ان مصنفيها ما كانوا يجمعون كل مفردات اللغة العربية بل كانوا يجمعون الفصيح منها فقط ومنتهى الكمال لمعجم عصرى لن يكون مصطلح تاريخيا) . ويسترسل فشر بعد هذا فيضع أساس هذا فيقول (ويجب أن يحوى المعجم التاريخى كل كلمة تداولت فى اللغة فان جميع الكلمات

١ - فقه اللغة/صبحى الصالح
٢ - المعجم اللغوى التاريخى /أ - فشر ص ٧
٣ - نفس المصدر السابق

المتداولة في لغة ما لها حقوق متساوية فيها وفي ان تعرض وتستوضح أدوارهــــا التاريخية في معجماتها، ولكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظـــر هذه، إذ أنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل تقتصر على ايضاح الاتجاه النموذجي لها، أعني أن مصنفيها إنما أرادوا التفرقة الدقيقة بين الفصيح من العربيـة وغير الفصيح وذلك بوضع قانون للإستعمال الصحيح للكلمات ويدل هذا الاتجاه دون شك على احساس لغوي دميق عند اللغويين ولكنه عاقه القوة الحيوية الدافعة في اللغة عـن التقدم والتوسع .

والذي يجب اللفت اليه أن التاريخية التي ينبغي تطبيقها على المعجم التاريخـي، لا تكاد تطبق على كل ألفاظ اللغة اللهم الا ما كان شائع الاستعمال، أو بعبارة أدق مـا يمكن أن يطلق عليه لفظ الفصيح . وفيشر حين يتهم أصحاب المعاجم بأنهم لم يعنـوا إلا بالفصيح دون سواه من ألفاظ اللغة، لم يستند إلى استقراء واسع أصدر به هذا الحكم فان ما ذكره عن الخليل في معجم العين وهو أول معجم لغوي يدل على أن فكــرة الإستقراء كانت تسيطر على أصحاب المعاجم، بدليل أنهم اتبعوا منهجا رياضيا يمكن عـن طريقه هذا الاستقراء، وإن فاتهم شيء من هذه الألفاظ فاننا يرجع الى أن تلك الألفـاظ لم يصل اليها علمهم بها فقد تداركها الذين جاءوا بعد الخليل من أمثال ابن دريـد وابن سيده وابن بري وصاحب اللسان وسواهم من المعجميين .

ومسألة الفصيح من اللغة هذه شغلت العرب أمدا طويلا، اذ أنهم لم يكونوا علـى اتفاق في اعتبار ما هو فصيح في اللغة وإن اتفقوا على أنه الشائع الاستعمال والـذي يمكن أن يستشهد به في علوم الأدب . وقد جانب فيشر الصواب حين حدد مواطـن الاستشهاد بثلاثة أنواع : (١)

١ - القرآن الكريم باعتباره كلام الله تعالى .

٢ - الحديث الشريف باعتباره كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ - كلام فصحاء العرب المنظوم وغير المنظوم ثم الأمثال وذلك حتى نهاية القرن الأول .

---

١ - المعجم اللغوي التاريخي /أ . فشر ص ٧

فهذا الترتيب الذى يذكره فشر مستدلا أو مقررا ان مصادر اللغة ثلاثة أولهـا القرآن ثم الحديث ثم كلام العرب ليس بهذا الترتيب فان فصحاء العرب أسبق من نزول القرآن كذلك فان الشروط التى وضعها أصحاب القراءة جعلوا فيها موافقة القرآن للعربية ولو بوجه، اذا فالعربية هى الأصل الذى يدل عليه القول فى لغوية القرآن وتفسيره، ومن هنا شغل العرب أنفسهم بتحديد القبائل التى يرجع إليها فى تحقيق القول فى عربيته، وقد أوفر القول فى هذا الطبرى فى مقدمة التفسير حين أخذ فى شرح الحديث المشهور (نزل القرآن على سبعة أحرف) . . . أما عن الاستشهاد بالحديث فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا وذلك لجواز روايته بالمعنى .

والذى نلاحظه فى هذا المجال هو التطور التاريخى لكلمة " فصيح " وفهم العرب لها وتحديدهم لدلالاتها .ففى الجاهلية كان الفصيح هو اللغة التى يفهمها الناس جميعا ولا يظهر فيها أثر اللهجات الخاصة أو التى تستخدم فى تأدية الاغراض اليومية) وقد كان هذا واضحا فيما أنشد وقيل بسوق عكاظ، فقد كان الشاعر يأتى الى هذا المكان ناسيا لهجاته ناظما أو ناثرا بتلك اللغة التى كان الجميع يتكلمون بها والتى أطلق عليها بعض الدارسين المحدثين " اللغة المثالية " وهى اللغة التى تعارف الجميع عليها (١) .كذلك كان من صفات الفصيح أن يكون خاليا من اللحن الذى كان أمرا يعيب العربى ويؤخذ عليه ، وبعد الإسلام كان الفصيح هو ما جاء به العربى الذى عاش بعيدا عن المخالطة والتأثير ، والذى نلاحظه فى تلك الفترة هو أن التأثر بالقرآن من الناحية اللغوية لم يكن واضحا تمام الوضوح وبعد أن تقدمت الحياة الإجتماعية وازداد العمران وتخالطت الثقافات نرى أن العلماء قد اتجهوا بالفصيح اتجاها آخر فكانوا يرون أن الفصيح له شقان :

---

١ ـ فقه اللغة/د . على عبد الواحد ،ص ٨٦

١ - كثرة استعمال العرب للكلمة ويعنون هنا بالعرب الذين يوثق في عربيتهم .

٢ - خلوها من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس اللغوى .

كذلك أخذ بهم الغلو مأخذا كبيرا حين حددوا القبائل التى يؤخذ منها ويستشهد بكلامها، فلقد أجمع معظم العلماء على أن قريشا هى أفصح القبائل اعتمادا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال "أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش" وذلك على أنه تربى عند بنى سعد من أخواله وأنه أيضا من قريش لذلك نرى ابن فارس فى كتابه "فقه اللغة" (١) (أخبرنى أبوالحسن أحمد بن محمد مولى بنى هاشم بقزوين، قال حدثنا أبوالحسن محمد بن عباس الحشكى قال : حدثنا اسماعيل بن أبى عبيد الله قال : أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وولاة بيته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم وكانت قريش على فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم وفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .

الا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة) كذلك كان ثعلب يرى أن لغة قريش قد خلت من كل هذه العيوب التى ظهرت فى لهجات القبائل العربية (٢) وأيضا الفارابى فى كتابه المسمى "الالفاظ والحروف" ولا يخرج ما قاله عن هذا (٣) (كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس والذين

---

١ - المزهر/السيوطى جـ١، ص ٢١٠

٢ - المزهر /السيوطى جـ١ ص ٢١١

٣ - نفس المصدر

عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد فان هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا من سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الهند المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب) .

وقد قام الزركشى فى كتابه "البحر والمحيط" بجمع شرائط لزوم اللغة (١) قال أبوالفضل بن عبدان فى شرائط الأحكام وتبعه الجيلى فى الاعجاز :

لا تلزم اللغة الا بخمس شرائط :-

أحدها : ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل .

والثانى : عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم فى الشرعيات .

والثالث : أن يكون النقل عمن قوله حجة فى أصل اللغة كالعرب العاربة مثل قحطان ومعد وعدنان فأما اذا نقلوا عمن بعدهم بعد فساد لسانهم واختلاف المولدين فلا .

قال الزركشى ووقع فى كلام الزمخشرى وغيره الاستشهاد بشعر أبى تمام بل فى الايضاح للفارسى ووجه بأن الاستشهاد بتقرير النقلة كلامهم وانه لم يخرج عن قوانين العرب .

---

١ - المزهر/السيوطى ج ١ ص ٥٨

وقال ابن جني : يستشهد بشعر المولدين في المعاني كما يستشهد بشعر العرب في الألفاظ .

والرابع : أن يكون الناقل قد سمع منهم حسا وأما بغيره فلا .

والخامس : أن يسمع من الناقل حسا .

ورغم هذا التعنت والغلو فانهم لم يفطنوا الى الفروق الواضحة في الدلالات والترتيبات والآثار التي تتركها البيئة في تحديد وفهم الألفاظ ولا ريب في أن ذلك يرجع في المقام الأول الى ضعف الخيال عند العربي وعدم قدرته على ادراك هذا ، فهو الذي عاش على فطرته حاصرا نفسه داخل جزيرته متجاهلا أن اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية وأداة فكر وارتقاء وأنها في مسلكها الاجتماعي الذي تسلكه داخل قطاعات المجتمع المختلفة تحدد مقاييسها ومعايير استعمالها كرموز للدلالة على المجتمع (١)

فاللغة لا تصل ولا تنتشر بين الناس ويصبح متعارفا عليها ويؤخذ منها ويضاف اليها الا بعد أن تمر بثلاثة مراحل :

١ - مرحلة النشوء والارتقاء وفيها تكون اللغة بسيطة وقليلة وغير متصرفة أى جامدة لا تتغير بنيتة كلماتها وهذه المرحلة الهامة هي التي اختلف عليها العلماء اختلافا كبيرا ممن اعتبر أن اللغة الهام من الله ومن جعل أن الانسان هو منشيء اللغة

اكتسبها بطريق المصادفة أو التمثيل حيث كانت أصواتا مبهمة لا هدف لها ثم تصادف أن نطق بها أثناء حدث من الأحداث (٢) فارتبطت به وهو ما يطلق عليه بعض العلماء بمرحلة الرمز . وكان هذا هو الداعي لاطلاق الرمز أو الكلمة على أكثر من معنى ويرى جسبرسون أن كلمات اللغة تزداد مع الأيام ايحاءا للدلالات وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدرا أكبر من تلك الرمزية حتى يأتي وقت تصبح فيه الصلة أدى وأوثق بين اللفظ ودلالته .

---

١ - فقه اللغة/صبحي الصالح ص٤٩

٢ - دلالة الألفاظ /ابراهيم أنيس ص ٤٠

٢ - المرحلة الثانية وهي مرحلة متأخرة عن الأولى في حياة الانسان وفيها تكون اللغة أداة وصل تمتاز بالسوابق واللواحق كما تمتاز أيضا بقدرتها التعبيرية ومسايرة أطوار الحياة ولكن الى أمد محدود .

٣ - المرحلة الثالثة وهي المرحلة التحليلية والتي تمثل اللغة نضجا راقيا وفيها تتخذ الألفاظ شكلها النهائي وتتحدد دلالات كلماتها ويمثل هذه المرحلة في اللغة العربية القرآن الكريم .

ولقد تناول العرب هذه المرحلة الأخيرة من اللغة بالدراسة والتحليل الى تلك المرحلة السابقة وهي التي نقدرها بالشعر الجاهلي ولكنهم ضيقوا استخدامها وقصروه على مبهم القرآن وغريبه وهذا الابهام والغريب الذي في القرآن ليس راجعا كله الى صعوبة في اللغة أو تعطيل فيها وانما مرجعه الى أمرين :

١ - أن القرآن الكريم وقد نزل مخاطبا كل العرب فقد استحدث دلالات جديدة للكلمات تناسب بلاغته واعجازه ومغايرة في معظم الأحيان لما قد عرفه العرب من قبل .

٢ - أن بعض ألفاظه كانت مرتبطة ببعض المرويات القديمة التي تفسرها ولا سبيل الى معرفة دلالاتها الا بها .

وقد تنبه ابن عباس الى هذا الأمر وفطن له فأضاف الى عملية التفسير العنصر اللغوي الذي يقرب دلالة اللفظ الى الذهن ويساعده في فهم التركيب وكان ذلك العنصر الذي أخذه هو الشعر الجاهلي فكان اذا ما سأله أحد عن معنى من تراكيب القرآن رد عليه أما سمعتم الشاعر يقول كذا وينشد البيت(١) وأثبت ابن سعد هذا في طبقاته ونقل عنه الطبري أنه قال "اذا تعاجم شئ من القرآن فنظروا في الشعر فان الشعر عربي" . كذلك كان يبحث عن دلالات الألفاظ المبهمة في اللغات العبرية والسريانية والآرامية .

---

١ - الاتقان في علوم القرآن / السيوطي جـ ١ ص ١٢١

والواقع أن ابن عباس بهذه اللفتات اللغوية التي تنبئ عن فهم واعٍ قد حدر دون أن يلتفت اليه العلماء منهجا من أهم مناهج علم اللغة/وهو منهج البحث اللغوي التاريخي المقارن فقد اتصل تفسير القرآن عند ابن عباس بعناصر عديدة اعتمد عليها كان أهمها :

١ - عنصر أسباب النزول .

٢ - عنصر فهم القرآن .

٣ - الاستشهاد بالشعر .

٤ - مروياته عن الأخبار التي لم تذكر في القرآن أو الحديث .

٥ - البحث عن معاني بعض الكلمات في اللغات الشقيقة المجاورة .

وبهذا نرى أنه بحسه الدقيق وفطنته الواعية قد سبق عصره في وضع مبادئ الدراسات اللغوية عامة وفقه اللغة بصفة خاصة وقد أدرك ذلك الترابط وتلك الصلة التي بين اللغات المتجاورة والتي أثرت في بعضها البعض .

ولا يختلف منهج فشر وهو أحد الأعمدة الذين تصدوا لعمل المعجم اللغوي التاريخي عما جاء به ابن عباس فنراه يقول في المقدمة : (١)

يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة - بلا استثناء وجدت في اللغة وان تعرض على حسب وجهات النظر السبع التالية : التاريخية - الاشتقاقية - التصريفية - التعبيرية - النحوية - البيانية - والاسلوبية . . . . . والأهمية العظمى مهما تكن الحال هي الموضع الذي وردت فيه الكلمة في آداب اللغة لأول مرة ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن كل كلمة قد بقيت مدة طويلة في أفواه الناس قبل أن تجد لها مكانا في الكتب وكان يجب أن يعنى ببدأ تطور الكلمة ،كذلك من واجب اللغوي العناية بآخر تطورها وهل لاقت موتا في الزمن القديم أو الحديث أو اندثر معنى من معانيها واستعيض عنها بمرادف لها

---

١ - المعجم اللغوي التاريخي / أ . فشر ص ٧

ويجب أن تقيد على حسب الترتيب التاريخي بين أقدم الشواهد وأحدثها - المواضع التي يتبين منها تقدم أوضح صورة من التطور التاريخي للكلمة ولكن هذه الطريقة تتطلب حتما من القارئ أن يكون ملما من قبل بتاريخ آداب اللغة العربية، واقفا على تاريخ الناطقين والناشرين من أبنائها وبذا يكون في مقدرته أن يدرك النتائج اللازمة في التطور التاريخي للكلمة ومعانيها ويحسن حين الاستشهاد بمؤلف أو كتاب غير معروف أن يذكر عصره باختصار.

ومن هذا نرى كيف استطاع ابن عباس بعطرته اللغوية تلك أن يدرك الدلالة التاريخية للكلمة وتطورها وتحديد مدارجها، تلك التي تكلم عنها فشر فيما سبق ومما لا شك فيه أن تلك الدلالة التاريخية للكلمة وتطورها كانت عونا للدراسات الإسلامية المختلفة التي عكفت على النص الديني، دراسة له - مفسرة مستنبطة ما فيه من أحكام وشرائع من دلالات ألفاظه وما يوحيه باطنه ويعلنه ظاهره، والواقع أن هذه كانت أولى الدراسات اللغوية ولا نفرق هنا بين الدراسات اللغوية الخالصة، والدراسات اللغوية القرآنية، إذ لم يكن هناك اختلاف بينهما فقد قامت الدراسات اللغوية معتمدة على القرآن بقصد خدمته، واجتهادا للتطبيق الصحيح للشرع، ويجب أن ينظر إلى الدراسات اللغوية في نشأتها من هذا الجانب إذ أنه المثل الحقيقي لها الموضح لأبعادها فيما بعد .

ويخطئ من يذهب لغير هذا إذ حاول بعض الباحثين إرجاع النشأة اللغوية إلى الأدب العربي والنعرة القومية (١) غير ملتفتين إلى الناحية الدينية إلا عرضا فالدكتور حسين نصار في كتابه " المعاجم العربية " حاول أن يعزي الاهتمام الأكبر للنهضة اللغوية إلى محاولة العرب المحافظة على الجنس نقيا بعدم التزاوج بين الأعراب والموالي وكذلك عدم الاختلاط والمحافظة على التراث واللغة من ظهور اللحن وقدم لهذا بمقدمة طويلة تناول فيها الجانب الاجتماعي بإسهاب فيقول (٢) (في ظل هذه النظرة بدأ الاهتمام باللغة العربية وتنقيتها وتخليصها من شوائب اللحن وإقامة القواعد لفصاحتها وإعرابها)

---

١ - المعجم العربي / د . حسين نصار ص ٢٠ جـ ١
٢ - نفس المصدر .

وتصاريفها فانه اذا كان لكل أمة ميزة اشتهرت بها فميزة العرب وشهرتهم في لغتهم) . ثم يقول بعد ذلك (ولما كانت هذه نظرة العرب الى لغتهم ومحاولتهم التوفيق فيها عنوا بتهيئة الظروف لأبنائهم كي يتيسر لهم السيطرة على اللغة والامتياز فيها)، ويبدو أيضا أن الدكتور حسين نصار كان متأثرا بكتابات السلف عن الخلاف بين العرب والعجم في قضية اللفظ والمعنى اذ لا معنى لتاريخ حياة اللغة من الجانب الاجتماعي للحياة فقط أو إعطاء الإهتمام الأكبر اذ لم يتضح هذا الا في القرن الرابع والخامس . فالمعروف أن العرب قد تزاوجوا من الأعاجم منذ السنين الأولى للفتح العربي منهم الحسين بن علي عليه السلام وابن أبي بكر ثم بعد ذلك في العصر العباسي كان سيبويه أول من ألف في اللغة . والمعروف أيضا أن الدراسات الأولى للغة كانت كلها موجهة الى القرآن وليس الى الأدب والشعر كما جاء في مقدمة الدكتور حسين نصار،فلم يكونا الا وسيلتين يستعان بهما على شرح النصوص والوقوف على دلالات بعض الألفاظ التي أخذت طورا جديدا في القرآن - وهو نفسه يقرر هذا حين يرد على المرحوم أحمد أمين (فقد كان أول الأبحاث اللغوية يدور حول الألفاظ القرآنية أو ما عرف بعد باسم كتاب غريب القرآن ولغات وما شابه ذلك)، نضيف الى ذلك أن بلوغ الخليل الى فكرة وضع معجم كان للقول بأن الأبحاث اللغوية وصلت الى مرحلة المعاجم) وفي هذا تناقض مع ما جاء في هذه المقدمة من أن المحافظة على الشعر والأدب العربي هي السبب في نشأة الدراسات اللغوية فالدراسة اللغوية الخاصة بالشعر نشأت متأخرة جدا عن الدراسة اللغوية القرآنية.

ونحن نستطيع أن نلحظ بشئ من اليسر أن أولى الدراسات اللغوية التي ظهرت هي الدراسة الخاصة بالقراءات والمبهمات والغريب الذي جاء في القرآن .وليس الغريب أو المبهم الذي جاء في الشعر وذلك لحاجة العربي إليه ،أما بالنسبة للمعجم فان الحاجة كانت

أمر لفهم وقراءة النص الديني، وكانت هذه هامة جدا بالنسبة اليهم وأعانهم على ذلك حسهم الدقيق باللغة فأكبوا على تقعيدها ودراستها .

ونستطيع أن نقرر هنا أيضا أن نشأة علم اللغة قد بدأت بمرحلتين مختلفتين :

الأولى : كما قررنا هي دراسة المبهمات والغريب من القرآن وكانت هذه الدراسة عند العرب وهم كما نعلم قوم فطريون ليست لديهم ملكة التصور والخيال الا بقدر ما تعارفوا عليه فكان هذا هو الاختلاف الذى امتد فيما بعد وأخذ شكل الفرق الاسلامية من سنية ومعتزلة وشيعة وجبرية ومشبهة ومجسمة .

الثانية : فهي محاولة وضع قواعد اللغة يسير عليها غير العرب من العجم حتى يستطيعوا بها قراءة وفهم القرآن وأثر ذلك واضح تمام الوضوح فيما تركوه من آثار فانهم ما ان ملكوا زمام اللغة حتى أفاضوا بالكثير من الكتب عن القرآن أهمها تلك التفاسير القرآنية

ومن الخطأ ما ذهب اليه أيضا حسين قرر أن نشأة الدراسات اللغوية الخالصة كانت ضعيفة (١) (ومن الطبيعي أن نشأت الدراسات اللغوية الخالصة ضعيفة لا تستطيع أن تعتمد على نفسها أو تنفرد بوجودها ثم أخذ المهتمون بها يغذونها بأقوالهم وأبحاثهم فتقوى وتنمو الى أن استطاعت الوقوف على رجليها فالاستقلال بنفسها ثم بلغت مرحلة الفتوة والنضج ففي هذه المرحلة الأخيرة ظهرت المعاجم، أما ما قبلها من مراحل فلم تر المعاجم وانما رأت رسائل لغوية صغيرة ذات اتجاهات مختلفة) .

والواقع أنها ليست بذلك الضعف الذى تقصده معاجمنا فقد جانب المؤلف الصواب في اختيار هذا اللفظ وكان الأولى به أن يقول قليلة أو ضئيلة وهي مع هذا لا نستطيع أن نطلق عليها سوى ما نطلق على نشأة أي علم آخر فان هذه الفترة لم تكن للدراسات اللغوية ذلك الاحتياج الكبير الذى وضح بعد ذلك مثلا في تلك الشعوب التى أصبحت تتكلم العربية، فهي اذن تسير سيرا نسبيا مع الحاجة والحاجة في ذلك الوقت لم تكن

---

١ - المعجم العربي / دكتور حسين نصار ص ٢٣

تحتاج الى معجمات كما أن ظهور المعاجم لم يتأخر كثيرا .

فاذا ما رجعنا الى الفترة الأولى من حياة الاسلام لوجدنا أن المستمعين للقـــرآن الكريم لا يرتمكس . حجة له من المؤمنين أو من هو حجة عليه من الكافرين كانـــوا يفهمونه

ولا من خفيت عليه مقاصده ومعانيه بل كان وضوح معانيه ويسر فهمه هو الأصل فيما قـــام حوله من صراع بين المؤمنين والكافرين فلم تزل آياته تتتابع فتطمئن إليها الجماعة وما كـــان هذا الاطمئنان ليكون إلا من كلام مفهوم وأن القرآن كلام ذو معان تدل عليها تراكيبـــه اللفظية وعلى ذلك انعقد إجماع الأمة الإسلامية على أن لكل لفظ في القرآن له معنـــاه الإفرادي وكل كلام له معناه التركيبي وأنه لم يرد في القرآن ما لا معنى له وعلى هذا ســـار المؤمنون الأوائل في حفظ وفهم القرآن وكانوا اذا اختلفوا على شيء ردوه الى رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم ليوضح لهم ما أغمض من معانيه - غير أن هذا الاختلاف بين المسلميـــن لم يكن مرجعه الى فهم المعاني أو دلالة الكلمات بل كان معظمه راجعا الى اختلاف لغـات العرب مما كانت آثاره فيما بعد ممثلة في ظهور القراءات القرآنية وتعددها .

وبعد عصر الرسول عليه السلام كان المرجع الأول للمسلمين هم صحابة الرسول صلـــى الله عليه وسلم الذين قاموا بحمل الرسالة والسير بها ضاربين أروع الأمثال للعقليـــة الاسلامية الناضجة التي قامت لأول مرة بتطبيق الشرع على العقل مظهرين قدرات سياسيـــة ما زالت حتى اليوم من مفاخرنا .

فأبو بكر رضي الله عنه قام بعملية جمع القرآن وكانت هذه لفتة عظيمة منه ولو لم يكن لـــه غيرها لكفاه فخرا بهذا العمل الذي حفظ لنا التراث وضيع على المعرضين فرصة لا تعـــوض كتلك التي أخذها اليهود على أناجيل السيد المسيح عليه السلام كما أنه بهذا العمـــل قد وثق النص اللغوي والأصل الثاني للغة - ثم جاء من بعده عمر بن الخطاب رضي اللـــه

عنه الذى قام بتطبيق العقل على الشرع فوضع بذلك حجر الأساس للحكومة الإسلامية دالا على قدرته العظيمة فى فهم النصوص وتطبيقها على مختلف جوانب الحياة، ثم من بعده عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى قام بأكبر عملية سياسية دينية فى تاريخ الاسلام حين وحد المصاحف فقضى بذلك على فتنة لو قدر لها لتزعزع مركز الكتاب الكريم - ثم من بعده على بن أبى طالب كرم الله وجهه مدينة العلم بعد الرسول ومقصد كل مسلم فى فهم دينه فقد أجمع عليه كل الصحابة يستشيرونه فى كل ما غمض عليهم فكان مثال المشرع الواعى الفاهم والقابض على كتاب الله وسنة رسوله . ولا ريب أنه اذا كان هو الذى أمر أبا الأسود الدؤلى بوضع علم النحو لكان بذلك من أكبر المسلمين الذين درسوا النص القرآنى بفهم واع وأدرك متطلباته واحتياجاته وقد ظهر هذا واضحا فيما نسب اليه فى كتاب " نهج البلاغة " .

وبجانب ابن عباس الذى سبق الكلام عليه وأصحابه بدأت العلوم اللغوية وبدأ العرب ينظرون الى هذه اللغة نظرة مغايرة لما سبق أن الفوه، فقد استقرت الحياة بعض الشىء، وابتدأت فى الظهور بجانب اللغة العربية لغات أخرى لها من الخطورة ما يخشى منها على العربية، كذلك انتشر اللحن على ألسنة العرب مما حدا بالعلماء أن يشدوا الرحال الى البوادى يشافهون الأعراب وينقبون عن اللغة السليمة البعيدة عن التأثير، ومن أشهر من قام بهذا العمل منهم أبوعمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب والكسائى والأصمعى وغيرهم . كذلك أيضا كان التدوين العلمى قد سار شوطا لا بأس به فكانت محصلة كل هذا هو علم اللغة والذى سرعان ما قامت المعاجم بتأسيس أهم أركانه .

ويبدو أن فكرة علم المعاجم كانت كغيرها من الافكار التى انتشرت فى ذلك الوقت حيث نزع كل عالم الى وضع قواعد علم جديد كما أن الاتجاه فى ذلك الوقت الى التدوين حيث كان التراث معظمه قد دون فاتجهوا الى اللغة التى هى أليق بالحفظ فجمعوها ودونوها كما جمعوا الأشعار وسنن العرب .

وأول من اختمرت في ذهنه هذه الفكرة ألا وهي جمع اللغة وتدوينها فيما تعطينـــــا المصادر هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عاش في أوائل القرن الثاني وأخرج كتـــاب العين (١) الذي يعد بحق أول معجم في العربية ولا يعنينا هنا الاختلاف عليه فتلـــك المسألة قد شغلت العلماء العرب زمنا طويلا ولم يصلوا فيه الى كلام قاطع وهو أمر عرضـــي بالنسبة لدراستنا، فإن ما يهمنا هنا هو وجود المعجم الذي هو دليل على نضج علـــم اللغة وتفرع دراسته، فسواء أكان الخليل هو الذي وضعه أو جمعه تلاميذه من بعده فـــإن ذلك يعني أن الفكرة قد اكتملت ونضجت، والواقع كما سبق أن قلنا بولع العرب بالجمـــع والتدوين فان ما جمعوه ودونوه من رسائل صغيرة لبعض الموضوعات كالخيل والحشـــرات والحيوانات والطيور كانت هي الفكرة الممهدة للخليل لكي يخرج كتاب "العين" (٢) ويرجع السبب في اهتمامنا بالكتاب نفسه دون الخلاف عليه الى المنهج الموجود فيه فقيمتـــه الآن ليست في مادته بقدر ما هي في منهجه .

وبحق فان الخليل قد وضع الأساس الذي سار عليه كل من جاء بعده من ساير لـــه ومن مخالف فأما من سايره فقد اقتنع بما جاء به الخليل عازيا التقصير والنقص الى أنهـــا المحاولة الأولى من نوعها في اللغة وأن الخليل حين تصدى لهذا العمل كان في أواخـــر أيامه وكفاه أن فتح لهم الطريق ومهده . ولقد ظل منهجه مؤثرا في كثير من العلماء ســواء الذين اعترفوا بالتبعية أو تنكروا له ويتلخص منهجه في الآتـــي : (٣)

١ - حصر جميع الكلمات في اللغة بالطريقة التي يطلق عليها الآن التباديل والتوافيق .

٢ - ترتيب هذه الكلمات وفقا لمخارج الأصوات مبتدئا بالأبعد في الحلق ومنتهيا بمـــا يخرج من بين الشفتين (ع - ح - هـ - خ - غ - ق - ك - ج - ش - ض - ص - س - ز - ط - ت - د - ظ - ذ - ث - ر - ل - ن - ف - ب - م - و - ى - أ -) وقد سمى الخليل باب كـل حرف من هذه الحروف في معجمه كتابا .

---

١ - المعاجم / دكتور عبد الله درويش ص ٧٣
٢ - المعاجم العربية / دكتور عبد الله درويش ص ١٧
٣ - نفس المصدر

٣ - استقصاء الأبنية فيما بين الثنائي والخماسي .

٤ - شرح المستعمل وترك المهمل .

وكان من بين ما وضعه الخليل أساسا لمنهجه الاستشهاد بالشعر على الغريب أو المبهم وكان في شواهده القرآنية أميل الى التعليق عليها وشرحها وعد القراءات التي في الآية كما أنه أكثر من الاستشهاد بالحديث .

وتدفق بعد ذلك العلماء على هذا النوع الجديد من الدراسة مما حدا بكثير من الباحثين الى تقسيمهم وتصنيفهم الى تقسيمين :

١ - تقسيم تاريخي

٢ - تقسيم تصنيفي

فالدكتور أنيس يذهب في تقسيم علماء المعاجم الى طبقات : (١)

أ - الطبقة الأولى : بصريون ومنهم : أبو عمرو بن العلاء - عيسى بن عمر الثقفي - أبو الخطاب الأخفش - الخليل بن أحمد - يونس بن حبيب - خلف الأحمر .

كوفيون ومنهم : المفضل - الضبي - حماد عجرد .

ب - الطبقة الثانية : أصحاب الرسائل والكتيبات الخاصة بالألفاظ : أبوالفضل أبو زيد الأنصاري - الأصمعي - أبوعبيدة - معمر بن المثنى - النضر بن شميل اليزيدي - أبوعمرو الشيباني .

ج - الطبقة الثالثة : أبوحاتم السجستاني - أبوعبيدة - ابن السكيت - ابن الأعرابي - ابن سلام - أبوعمرو شمر الهروي .

د - الطبقة الرابعة : أصحاب المعاجم بالمعنى المألوف لنا : ابن دريد - ابن الأنباري - الهمداني - قدامة بن جعفر - القالي البغدادي - الأزهري - الزبيدي - الصاحب بن عباد - الجوهري ابن فارس .

---

١ - دلالة الألفاظ / دكتور ابراهيم أنيس ص ٢٠٦

فهذا التقسيم الذى بين أيدينا تقسيم تاريخى/وان كان ظاهر فيه تصنيفا فإن مرجعه الى المصادفة ليس الا فقط فقد اتسمت كل فترة من هذه الفترات بعمل معين . فالطبقة الأولى نجد فيها أبوعمرو بن العلاء وهو أحد أساطين الفكر العربى وشيخ من جاء بعده فقد تتلمذ عليه عيسى بن عمر الثقفى وأبو الخطاب الأخفش والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب وخلف الأحمر،كما تتميز أيضا بوجود المفضل الضبى صاحب المفضليات وحماد الراوية.

أما الطبقة الثانية فنجد فيها معظم المدونين أمثال الأصمعى وأبى عبيدة .

والطبقة الثالثة بها أصحاب التآليف .

والطبقة الرابعة فهى طبقة المشاهير مما كان لهم باع كبير فى المعاجم العربية ويكفى أن بها الجوهرى - والصاحبى والأزهرى - وابن دريد .

أما الدكتور على عبدالواحد (١) فيذهب مذهبا آخر غير الدكتور ابراهيم أنيس حيث قام بتصنيفهم فى طبقات ثلاث وفقا لنوع المعاجم وهو أقرب الى التصنيف المعجمى :

الأولى : رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى وهو النوع الأول فى الظهور .

الثانية : المعجمات الجامعة التى ترمى الى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى ،ومن أشهر ما ألف فى هذا النوع :

كتاب الألفاظ لابن السكيت (١٨٦ - ٢٢٤ هـ)

كتاب الألفاظ الكتابية للهمذانى (٣٢٧ هـ)

كتاب مبادئ اللغة للاسكافى (٤٢١ هـ)

كتاب فقه اللغة للثعالبى (٤٢٩ هـ)

كتاب المخصص لابن سيده (٤٥٨ هـ)

الثالثة : وهى المعجمات التى ترمى الى شرح المفردات " يحتاج اليها من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على مدلوله " . وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل

---

١ - فقه اللغة/دكتور على عبدالواحد ص ١١١

هو الخليل بن أحمد، ويرى الدكتور علي عبد الواحد أن أصحاب الطبقة الثالثة الذين جاءوا بعد الخليل قد رجعوا جميعا الى كتاب العين ينهلون منه، فبعضهم قام باختصاره، وبعضهم قام بتهذيبه، وان خالفه البعض في التبويب ولكن الجميع كانوا عيالا عليه .

ونكتفي هنا بهذين التقسيمين اذ لم يقم أي باحث آخر بوضع تقسيم جديد، ونحن أميل الى الأخذ بالتقسيمين كل في مكانه، فلا غنى لنا عن التقسيم التاريخي، اذ أنه هو الدليل الوحيد لدراسة تطور اللغة، ولا عن التقسيم الطبقي الذي يكفي الباحث مشقة البحث في كل المعاجم بتحديد اتجاهاتها وتصنيفها / وهنا لابد لنا من وقفة قصيرة أمام معاجمنا - فالبرغم من وفرة المعاجم في لغتنا الغنية في مفرداتها ومشتقاتها ومترادفاتها الا ان هذه المعاجم لم تعط اللغة حقها فالمعجم هو الممثل الأول للغة والذي يجب أن يكون حاويا لها شارحا ما فيها مزيلا عنها كل غموض والتباس (١) الا أنه في معاجمنا فقد جاءت كلها عن طريق واحد ليس فيها تصنيف واضح أو نظرة فاحصة فيها جمع . وتكاد تكون كلها على وتيرة واحدة حتى أنه يمكننا القول بأن الوحيد الذي قدر له وضع معجم هو الخليل بن أحمد أما الذين جاءوا من بعده فقد اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا، فقد اتفقوا معه في الأصول وخالفوه في الفروع أحيانا فجاءت معاجمهم اختصارا لمعاجم سابقة أو مهذبة لها أو على غرارها، وهذا هو أوضح العيوب في نظرتنا فان اعتماد كل طبقة من أصحاب المعاجم على الطبقة السابقة لها كان أمرا عظيم الخطورة في لغتنا فمن ناحية مال العرب الى الكم وليس الى الكيف في معاجمهم فذهبوا يحصرون ويجمعون بغير حصر دقيق أو وعي كافي / فكان همهم الأول هو جمع الفصيح أو الغريب دون النظر الى الزمن الذي يعيشون فيه وما استحدثته الحياة من دلالات في اللغة كان الأجدر بجمعها وتسجيلها ووصفها، فانهم بدلا من هذا ساروا في اتجاه آخر مثل الاتجاه الأول الذي تكلمنا عنه وكان هذا هو ولعهم بالغريب والشاذ بقصد التعجيز وتبيان الهمة وما كان أغنانا عن هذا .

Encyclopedia Britanica - ١

فذلك كان تحديدهم للفصيح والقبائل التي يؤخذ عنها فقد كان أولى بهم أن يجمعوا هذه اللغة على انفراد وتبويبها وتوصيفها فالعربية الآن ليست لغة قبيلة بل لغة أمة وكان يهمنا أن تكون هذه اللغة بين أيدينا ومن هذا نرى أن نظارة القدماء كانت نظارة ضيقة شابها التعصب والغلو .

كذلك كانت المراجع التي يرجعون اليها في وضع معاجمهم قليلة للغاية فاللسان كما جاء في مقدمته قد اعتمد على خمس مراجع .

كذلك كان اهمالهم للمولد أمرا عظيم الخطورة،فقد ضيع علينا هذا فرصة كبيرة لدراسة التطور اللغوى في مهده مسايرا للحياة الاجتماعية والسياسية،وخاصة اذا ما عرفنا تقلب المجتمع الاسلامي بين عدة بيئات مختلفة،منها البيئة الصحراوية في عصر الرسول (ص)، والبيئة الحضرية المتمسكة بالأصول العربية في العصر الأموى،ثم البيئة المتحضرة التي رمت نفسها في أحضان الحضارات القديمة كالعصر العباسي الذى احتضن الثقافة الفارسية واليونانية،ثم ما استجد بعد ذلك من حضارات كبيرة كالحضارة المغربية في غرب أفريقيا والحضارة الأندلسية .

فاللغة شأنها شان كل كائن حي تخضع للتطور والتوالد،ولكن مع أسفنا الشديد قد قامت معاجمنا بعملية تحجير للغة محاولة وقف تطورها ونموها .

واذا كان من صفات النصوص الدينية أنها تحجر على اللغة عن طريق وضعها في قوالب لا تنحرف عنها أو تزيد ما بها محافظة على دلالاتها سواء أكان هذا عن طريق ظاهر اللغة أو تأويل باطنها فان هذا أيضا برغم ضرره للغة الا أنه قد حافظ عليها دون جهد أزالها شوقيه ولا يشوبه انحراف أو تشويه فجاءت اللغة الينا سليمة بنصوص دون توقف ، ولكن هذا الأمر ليس مقبولا على الاطلاق فقد كان عليها ان تساعد اللغة على الانطلاق والتوالد والاتيان بالجديد لمسايرة الحياة أى أن تسير اللغة مع الزمن لا أن يتوقف الزمن للغة .

فاذا كان للنصوص الدينية أن تحتفظ بدلالة ثابتة لكلماتها فليس معنى هذا أن الدين غير متطور،فالتطور هنا لا يساير الألفاظ بقدر ما يساير التطبيق العملي الممثل في الشرع والمثل أيضا في التوسع بما يجيء به الفكر ١ في حياة الأمة فمعاجمنا قد وقفت جميعها متشبعة بالنص الديني،وكان الأجدر أن يكون للدين معاجمه الخاصة به والحياة معاجمها الخاصة بها،فمن غير المعقول أن يقوم مؤلف في القرن الرابع أو الخامس بوضع معجم يعتمد فيه على لغة القرن الأول فان هذا هو الغريب فعلا لأنه يخلق اللفظة الموحشة القليلة الاستعمال في هذا العصر،بينما هي في عصرها لفظة لها قيمتها الدلالية .

كذلك وقعت معاجمنا في شبه اضطراب كبير من ناحية الاستعمال الصرفي الاشتقاقي للكلمة،فقد أجبرهم هذا في كثير من المواضع الى تكرار اللفظ أكثر من مرة أو نقله من مكانه المفروض أن يكون فيه،مثل الرباعي المضعف الذي اعتبره الكوفيون مشتقا من الثلاثي بينما اعتبره البصريون مادة اصلية كذلك المعرب من الألفاظ الذي أورده أصحاب المعاجم

هذه الحقبة هي الحقبة الأولى عندما قاموا بوضع معاجمهم،وكان أول من فعل ذلك هو الخليل بن أحمد،فمع تقلباته للكلمة،أورد للكلمات ذات المعاني تفاسيرها ومعناها،أما ما عدا ذلك فقد اعتبره مهجورا ،والواقع أن ما اعتبره الخليل مهجورا،لم يكن كذلك بقدر ما هو يتوافق حروف لا معنى لها،أي أنها مجرد ألفاظ لا جدوى منها،حيث أنه لا دلالة لها ولا تثير في الذهن شيئا،فالمعاجم العربية قد اهتمت بكل كلمة وراءها معنى وبكل كلمة وراءها معنى وبكل لفظ له نصيب من المعنى ولو قدرا ضئيلا .

ولسنا نميل هنا الى ايراد تعريف العلماء بالكلمة واللفظ والتفريق بينهما اذ أن ما

- ١

كتب فى هذا الموضوع حتى الآن قد حدده بصورة نهائية من أن اللفظ هو عملية النطق وخروج الصوت فاذا ما ربط بين هذه الأصوات وما يمكن أن تدل عليه من معنى تكونت الكلمة التى هى أساس المعجم ولا خلاف هنا مع ما قاله الدكتور تمام فى تعريفه للكلمة (١) (صيغة ذات وظيفة لغوية معينة فى تركيب الجملة تقوم بدور واحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغير موضعها أو يستبدل بها غيرها فى السياق ، وترجع فى مادتها غالبا الى أصول ثلاثة ، وقد تلحق بها زوائد) .

ومن طبيعة الكلمة أن يكون لها وظيفة لغوية فى

تركيب الجملة

فلم يجادل فيه اصحاب اللغة اذ أن هذه العملية من اختصاص أصحاب البلاغة وهو بهذا التصريف قد تناول جوانب الدلالة الأربعة :

١ - الجانب الصوتى

٢ - الجانب الصرفى

٣ - الجانب النحوى

٤ - الجانب الاجتماعى

والواقع أن أى كلمة لا تكاد تخلو من هذه الجوانب الأربعة التى حددت فيما بعد وسميت بالدلالة وفى هذا يقول الدكتور أنيس (لا يتم الفهم أو يكمل الا حين يقف السامع على كل هذه الدلالات) فالدلالة الصوتية ترجع أهميتها الى طريقة المتكلم فى تحديد المعنى سواء عن طريق النبر والارتكاز أو الاضغام وغيره وهذا ما يطلق عليه الدكتور أنيس " النغمة الكلامية " من التعبير الانجليزى .

أما الدلالة الصرفية فتتضح فى طريقة الصيغ وبنيتها ويدخل فيها ما نطلق عليه التجسيم لأنها تبين التفاوت فى النوع .

---

١ - مناهج البحث فى اللغة ص ٢٢٤ دكتور تمام حسين

والدلالة النحوية لابد منها اذ لا نفهم الكلمة فى مسار الجملة الا بها .

ثم نأتى بعد ذلك الى أهم أنواع الدلالة وهى الدلالة الاجتماعية فلكل كلمة من كلمات اللغة دلالتها الاجتماعية التى هى المعنى الذى يفهمه الفرد فى المجتمع من ألفاظ لغته ويتفق معه فى هذا الفهم أفراد المجتمع (١) ويعرف الدكتور أنيس هذه الدلالة حيث يطلق عليها الدلالة المعجمية أو الاجتماعية (كل كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التى يطلق عليها الدلالة الاجتماعية) كذلك يرى أن هذه الدلالة تحتل بؤرة الشعور لأنها الهدف الأساسى فى الكلام .

ولا معنى لما حاوله البعض فى التفريق بين الدلالة الاجتماعية والدلالة المعجمية - فالدلالة الصوتية نجدها بوضوح فى كتب اللغة وكذلك النحوية والصرفية نجدها فى كتب النحو والصرف فتكون المعاجم اذا هى المختصة بالدلالة الاجتماعية لأنها تحوى المعنى الذى تعارف عليه المجتمع .

وقد ازدادت العناية بهذا الفرع حتى أصبح الآن علما مستقلا هو علم الدلالة أو علم دراسة المعنى (٢) . study of meaning وهذا العلم يقوم على دراسة المعنى من الناحية الوصفية فتدرس معانى الكلام فى لغة من اللغات فى فترة من فترات استعمالها فى مكان معين ثم تدرس من الناحية التطورية فيدرس تغيير معانى الكلام فى لغة من اللغات عبر عصر ١ الى عصر ٢ ... عصر من مراحل تاريخها ، وعلى هذا فان هذا العلم يعتبر غاية الدراسات .

أما الذين تصوروا أن علم الدلالة قاصر على اللغات التى لم يوضع لها بعد معاجم فان أكمل ما رد عليهم هو رد الدكتور المرحوم محمود السعران حيث يقول :

(قد يتصور بعض المبتدئين فى الدراسة اللغوية أن علم الدلالة أو دراسة المعنى قاصر

---

١ - دلالة الألفاظ / دكتور ابراهيم أنيس

٢ - علم اللغة / دكتور محمود السعران ، الباب الرابع

على اللغات التي لم يوضع لها بعد معاجم أو قواميس فاللغات ذات المعاجم في غنى عـــن هذه الدراسات لأن المعاجم تمدنا بمعاني الكلام وهذا تصور خاطئ لأن المعــــنى القاموسي أو المعنى المعجمي ليس كل شئ في ادراك معنى الكلام فثمة عناصر " غيــر لغوية " ذات دخل كبير في تحديد المعنى ،بل هي جزء أو أجزاء من معنى الكلام وذلـــك كشخصية المتكلم وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات)كذلك يرى أن المضمون للكلمــة وهو هنا الكلمة المعجمية يختلف اختلافا كبيرا عن المضمون النفسي وهو حالة المتكلـــم أو السامع أما عند الاستعمال فلا يستعمل هذا مفصولا عن ذاك .

أما علاقة هذا العلم بهذه الدراسة فلأن أهم أركانه هو دراسة تغيير المعنى أو التطور الدلالي Semantic development الذي يحدث تدريجيا في أغلب الأحــوال ولكنه قد ينتهي آخر الأمر بتغير كبير في المعنى (٢) وهذا التغيير ربما يكون نتيجة لتغير السلوك الاجتماعي التي تتضح في حالة التغير الدلالي منه من حالة التقدير الحق

ويجعل الدكتور السعران ما يطرأ على المعاني في هذه التغييرات في قائمة واحــدة تصدق على جميع اللغات (٣) :

١ - التغييـــر الانحطاطـــي :

وهي الدلالات التي كانت في نظر الجماعة مدينة قوية ثم تحولت فصارت دون ذلك مرتبة.

٢ - التغيـــر المتسامي :

وهي الدلالات التي تشير الى معان هينة أو وضعية ثم صارت في نظر الجماعــــة الكلامية على معان أرفع وأشرف .

٣ - التغيـــر نحو التخصيـــص :

وهي الألفاظ التي كان يستعمل كل منها للدلالة على طبقة عامة من الأشياء فيدل كـل

---

١ - علم اللغة/دكتور محمود السعران ،الباب الرابع ص ٢٨٠

٢ - نفس المصدر

٣ - علم اللغة/دكتور محمود السعران

منها على حالة أو حالات خاصة .

٤ - التغيير نحو التعميم :

وهو ضد التخصيص

٥ - التحويل نحو المعاني المضادة وهي استعمال كلمة للدلالة على معنى معين واستعمالها في نفس الوقت للدلالة على ضد المعنى وهذه القائمة

اللغة التي يطبق فيها

كلغتنا مثلا التي تمتاز بوفرة المترادفات والتنقلات الاجتماعية العنيفة والتناحر الكبير لمجموعة عجيبة من الثقافات تتمثل في اليونانية والفارسية والهندية والعبرية وغيرها ،فهذه القائمة ان طبقت فانها تطبق فقط عند الدراسة من الناحية الاجتماعية ،فعلو اللفظ وهبوطه وتعميمه وتخصيصه كلها تدخل في نطاق المجتمع المتطور تطورا عاديا الا المؤثر فيه من الخارج أو الذي استحدث دلالات لم تكن موجودة في الماضي .

واذا ما رجعنا للكشف عن هذا التطور الدلالي في معاجمنا فاننا لا نجد له وجودا على الاطلاق الا في نواحي قليلة مبعثرة في كتب اللغة ،اذ لم يفطن العربي الى هذا التطور ولم يكن يقصده بل كان همه كله موجها الى البحث عن الفصيح والمولد والغريب وعزفوا عن البحث في هذا التطور الدلالي ومرت القرون دون أن يدونوا عنه شيئا أو يقوموا بدراسة هذا التطور .

وقد أدرك الدارسون المتأخرون بعد أن استقرت الحضارة العربية واستقرت أيضا دراسة اللغة أنه لا بد من دراسة هذا التطور الدلالي الذي أدى بدوره الى تطور واضح في مجرى حياة التشريع الاسلامي مثلا في أهل الرأي وأهل السنة ثم بعد ذلك في أهل الظاهر والحنابلة كما أنه أدى أيضا الى تطور من نوع آخر

مثلا ذلك في المذاهب الاعتقادية التي عرفها التاريخ الحضاري من مجسمة
ماتريدية وأشعرية ومعتزلة، وينبغي لنا هنا أن نشير الى أن الأشعري قد وقف موقفا
وسطا من هذه الفرق معتمدا في موقفه هذا على اللغة : فاذا كانت الألفاظ
التي وردت في ثنايا النص القرآني والتي تصف الذات الالهية ببعض الصفات المؤدية
أحيانا الى شيء من المشابهة من الحوادث كاليد والوجه بقوله تعالى (يد الله فوق
أيديهم) (١) وفي قوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) (٢) وفي قوله تعالى (لأخذنا
منهم باليمين) (٣) فان كل لفظ من هذه الألفاظ في تطوره الدلالي له طرفان : طرف
أول وطرف آخر فالأول هو ما يدل عليه ظاهر اللفظ وبه أخذ المجسمة والمشبهة، أما
الطرف الآخر فانه الذي أخذ به القائلون الى التنزيه المطلق وكلاهما فيما
يرى الأشعري مغال فيما ذهب اليه والوجه الحق أن نقف فيها موقفا وسطا
فاذا كان الله قد أثبت لنفسه يدا فانها يد لا كأيدينا وعين لا كأعيننا ووجه لا كوجوهنا .

كذلك كان الأمر في التشريع نفسه فأهل الظاهر يرون أن الخمر في قوله تعالى
(انما الخمر والميسر) (٤) يراد بها ما سكر العقل لا ما اختصت به عند أهل الرأي من
عصير العنب وعلى ذلك فلا داعي للقياس عند أهل الظاهر وعند الحنابلة أيضا، أما
المسكرات الأخرى التي ليست من عصير العنب فانها لا تدخل عند أهل الرأي في الخمر
وانما هي شراب مسكر له حكم آخر غير حكم الخمر، كذلك الأمر في الربا فان الآية المحرمة
له تدل على جميع أنواع الربا من الفضل والنسيئة وقد لفت ابن القيم في كتابه "أعلام
الموقعين" الى هذا كله في الفصل الذي عقده عن الكلام عن الأخطاء التي وقع فيها

الفقهاء لاهمالهم البحث في التطور الدلالي في حياة الألفاظ العربية التي وردت في النص القرآني .

فاذا كان هذا هو الشأن في حياة اللغة التي هي وعاء الفكر الديني مثلا في القرآن والحديث فكذلك كان أمرها في التشريع العملي التفصيلي فقد لحظ الراغب هذا الاضطراب البادي في حياة المجتمع الاسلامي نتيجة فهمه الدقيق في تحديد دلالات الألفاظ ومن هذا لم يتعصب لمذهب على مذهب ولم يرجح طريقا من طرق الفهم على آخر اذ ان النص يحتمل الكل من أولئك (١) وعلى هذا فقد واجه هذا الاضطراب بأن وضع معجما محررا (٢) لتحقيق معاني الألفاظ التي وردت في القرآن مقرنا ذلك بالتحقيق بهذا التطور الواضح في حياة اللغة على ألسنة المستعملين لها .

والحق أن اتجاه الراغب الى هذا العمل كان أمرا يحتاج الى دراسة واعية واستقصاء بعيد ولا سبيل الى هذه الدراسة وذلك الاستقصاء الا بتحقيق القول في حياته أهو عربي أم أعجمي وهل كان لهذه العجمة أثرا في توجيهه لهذا الدرس الحديد نظرا لما سبق أن قلنا من أن الموالي كان لهم حسهم اللغوى القائم على التحديد الدقيق والتفريق الواعي بين دلالات الألفاظ ثم كيف نشأ وما هي الثقافات التي حصلها .ثم ما هو مذهبه الديني أو الاعتقادي .كذلك البيئة التي عاش فيها أكانت مادية أم دينية وأثرها في تكوين شخصيته وتفكيره واذا كان في هذا الأمر تعوزنا المراجع التاريخية التي تدلنا على هذا فان فيما ترك من آثار ما يعيننا على تمثل ذلك كله أو ادراك جله .وهنا لا بد من الاشارة الى الاسباب التي دفعت بالكثير من المؤرخين أن يهملوه (٣) فلم يترجموا له .وهل كان

---

١ - مقدمة التفسير / للراغب

٢ - المفردات / للراغب - المقدمة

٣ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٤

ذلك لأنه عاش بعيدا عن الدولة عاكفا على العلم والدرس والتحصيل أم لأنه لم يترك آثارا ضخمة كتلك التي تركها المؤلفون المعاصرون له وكان لافتة اليهم.

ونحن لم نعن بحديث مفصل عن مؤلفاته الا بقدر ما تدل عليه من أثر في تكوين المعجم . وقد اقتضت هذه الأمور ان اخص معجم مفردات الفاظ القرآن بدراسة مفصلة من حيث ترتيب الألفاظ وموقفه من اللغويين السابقين عليه في دراسة الصرف وخاصة الاشتقاق - تلك الظاهرة التي وسعت اللغة وأكسبتها الخصوبة والنماء ،ثم موقف الراغب من ظاهرتين شاعتا في تفسير الألفاظ القرآنية وهما ظاهرتا التفسير والتأويل (١) ،وهل كان التأويل ناشئا عن ذلك التطور الدلالي لحياة اللفظة اذ أصبحت تدل على أكثر من معنى منها ما هو راجح ومنها ما هو مرجوح وأن التأويل يختص بالمرجوح من الدلالات لأن السياق يحمله ويدل عليه وهو أوثق بالكتب الدينية وبالنصوص التشريعية وأشد صلة بها .

واذا كانت تلك هي الخصائص التي يمتاز بها كتابة المفردات فما هي قيمته بين الكتب التي صنفت في الموضوع نفسه كمشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة وغريب القرآن للسجستاني وهنا ينبغي ان نقرر أن الراغب لم يعاصر أصحاب هذه الكتب ولم يعش في نفس الظروف التي عاشوا فيها فان حياته قد جاءت متأخرة عنهما مما أدى الى رؤيته بوضوح لحركة التطور الواضحة في حياة اللغة عند اخوان الصفا وعند المتصوفة المتأخرين

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب

الظاهرة التي وسمت اللغة وأكسبتها الخصوبة والنماء ،ثم موقف الراغب من ظاهرتين شاعتا في تفسير الألفاظ القرآنية وهما ظاهرتا التفسير والتأويل ، (١) وهي كان التأويل ناشئا عن ذلك التطور الدلالي لحياة اللفظة اذ أصبحت تدل على أكثر من معنى منها ما هو راجح ومنها ما هو مرجوح وأن التأويل يختص بالمرجوح من الدلالات لأن السياق يحمله ويدل عليه وهو أوثق بالكتب الدينية وبالنصوص التشريعية وأشد بها صلة .

واذا كانت تلك هي الخصائص التي يمتاز بها كتابة المفردات فما هي قيمته بين الكتب التي صنفت في الموضوع نفسه كمشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة وغريب القرآن للسجستاني وهنا ينبغي أن نقرر أن الراغب لم يعاصر أصحاب هذه الكتب ولم يعش في نفس الظروف التي عاشوا فيها فان حياته قد جاءت متأخرة عنها مما أدى الى رؤيته بوضوح لحركة التطور الواضحة في حياة اللغة عند اخوان الصفا وعند المتصوفة المتأخرين فكان لابد من ملاحظة هذا التطور وأن يقيم له في عمله المعجمي مكانا وذلك واضح تمام الوضوح في المفردات فيقول ذهب الصوفية وذهب الفقهاء وذهب أهل الحكمة والمناطقة والفلاسفة وكل هذا لم يفطن له أصحاب الغريب السابقين عليه .

واذا كانت الظواهر العلمية كالظواهر الادبية تحدث مثيلات لها عند الأمم التي تشارك الأمة العربية شيئا من الأصل في الجنس أو التاريخ أو الثقافة فقد اقتضى ذلك أن أقوم بشيء من المقارنة بين صنيع الراغب في مفرداته وبين صنيع غيره من الذين تصدوا لدرس الكتاب المقدس وبخاصة التوراة ممثلة في جامع الألفاظ "الأجرون" لأبي سليمان داود بن ابراهيم الفارسي اليهودي القرائي وكتاب الأصول لأبي الوليد مروان بن جناح القرطبي في شرحه ألفاظ العهد القديم كذلك أيضا شروح سعديه الفيومي ثم المعجم العلمي الحديث لعبرية التوراة الذي ألفه في القرن الثامن عشر المستشرق الألماني فيلهلم جزينيوس وكذلك في أحدث طبعاته وآخرها وهي طبعة دريفر ثم طبعة كوهلر .

١ - مقدمة التفسير/الراغب

وليست هذه المقارنة بدعة أخذت بها نفسى فان ما انقسم عليه المجتمع الاسلامى فى الاعتقاد يشبه الى حد بعيد ما انقسم عليه مجتمع أصحاب الكتب التى أشرت اليها كاليهود القرائين والربانيين والصدوقيين والفريسيين .

واذا كان فى ذلك البحث الذى اخترته موضوعا للدراسة جديد فانه يتضح فيه :

١ - القاء الضوء على تلك الشخصية التى لم تنل حظها من التأريخ لها .

٢ - تحقيق مذهب الراغب الدينى فى وقت تخالطت فيه المذاهب والفرق .

٣ - بيان منهجه اللغوى عامة وكذلك منهجه فى كتاب المفردات خاصة .

٤ - بيان موقفه من المشكلات اللغوية والدينية خاصة فى المجاز والترادف والتأويل والتفسير .

٥ - التأريخ لنشأة المعاجم الدينية للكتاب المقدس والمقارنة بينها وبين العربية .

٦ - وضع اطار جديد لمعجم قرآنى يستوعب فيه معجم الراغب لتطويره والارتقاء به الى مستوى المعجم القرآنى العلمى الحديث عن طريق اضافات لا يمس فيها نص الكتاب وانما يكمل بها كما فعل فى الطبعات المتعاقبة لمعجم التوراة لجازنيوس.

٧ - المقارنة بين المعاجم الدينية فى اللغات السامية ما دامت كل هذه المعاجم تتصل بنص دينى وبلغة يفهم بها ذلك النص ويفسر على مدى الحقب والأجيال .

وقد اقتضى ذلك منى أن أقسم هذا البحث الى مدخل وثلاثة أبواب :

فالمقدمة وهى التى مررنا بها حتى وصلنا الى هذه النقطة هى مدخل هذه الرسالة ولم أكن لا أستطيع أن أوجز أكثر من هذا للعجز الواضح فى الدراسات المعجمية لدينا وفى النظر الى اللغة من وجهة معجمية كذلك دراسات فقه اللغة وبالأخص اللغات العلمية

فكان على أن أقوم بهذا أو انظر الى اللغة من هذه الوجهات وأن أسير معها شوطا كي أصل الى الراغب وعصره وان كان الأمر قد اقتضى مني

وان كانت بحق أجدر من موضوعات كثيرة بالدراسة وأخص

هذا المرحلة اللغوية الاولى في فهم النص القرآني المثلة في ابن عامر ثم موقف العرب أمام مفردات لغتهم وكيف دونت وكذلك ارتباطها بالتشريع ثم جهودهم في المعاجم ومشاكلها وأخرج من هذا لدراسة دلالة الألفاظ عند العرب لأصل الى عصر الراغب .

أما الباب الأول فقد قسمته الى مدخل وخمسة فصول :

المدخل : وقد تناولت فيه وضع هذه الشخصية بين الشخصيات التي يؤرخ لها .

الفصل الأول : وفيه قمت بتحقيق اسمه ونسبه .

الفصل الثاني : تكلمت فيه عن حياته ومولده .

الفصل الثالث : تناولت فيه شخصيته بالدراسة عن طريق مؤلفاته وكلام المؤرخين عنه .

الفصل الرابع : وقد قمت فيه بتحقيق مذهبه من كتبه .

الفصل الخامس . تناولت فيه أهم أعماله الموجود منها وما فقد ثم تكلمت عن اغفال رجال الطبقات له .

الباب الثاني . وقد قمت بتقسيمه أيضا الى مدخل وأربعة فصول :

المدخل : تكلمت فيه عن كتاب المفردات ونظرية الراغب فيه .

الفصل الأول :

الفصل الثاني : تناولت فيه الأسباب التي دفعت الراغب لتأليفه المفردات .

الفصل الثالث : وفيه تكلمت عن منهجه .

الفصل الرابع : تعرضت فيه لموقفه من المشكلات اللغوية والدينية وبينت موقفه منها ، وهذه المشكلات هي : المشترك اللفظي - مادية اللغة - تحقيق الألفاظ - المجاز والترادف - التفسير والتأويل .

البـــاب الثالث : وقد قسمته الى ثلاثة فصول :

الفصـــل الأول : تناولت فيه معنى كلمة الغريب ثم عقدت مقارنة بين صنيع الراغـــــب وصنيع غيره من تناول هذا اللون بالدراســة .

الفصـــل الثاني : وفيه عقدت مقارنة بين اللغة العربية واللغة العبرية مبينا أهـــــم وجوه التشابه التي دفعتني لعقد هذه المقارنة .

الفصـــل الثالث : وقد قمت فيه بالتأريخ لحركة المعاجم العبرية مع بيان مناهج العلماء اليهود أمثال سعديا الفيومي وداود بن سليمان ومروان بن جناح وجزينيوس .

أما الخاتمة فقد تكلمت فيها عن النهضة اللغوية للمعاجم العبرية ثم فكرة في تطوير معجم المفردات للراغب والارتفاع به الى مستوى المعجم القرآني العلمي الحديث كـــما عمل في الطبعات المتعاقبة لمعجم التوراة لجزينيوس .

وفي ختام هذا المدخل الممثل للمقدمة ينبغي لي أن أشير الى شيئين هامـــين واجهانـــي :

١ - عدم وجود المراجع المتصلة بحياة الراغب في مدينة الاسكندرية وكذلك في القاهـــرة أما القليل الذى وجدته بدار الكتب بالقاهرة فقد عانيت فيه الكثير حيث أن معظـــم هذه الكتب قد حفظ في مخازن القلعة لحمايتها نظرا لحالة الحرب التي تعيشهـــا البلاد في الوقت الحالـــي .

٢ - أني وجدت أن هناك دراسات قديمة عن هذا الرجل موجودة في كتب الشيعة وهـــي لدينا عزيزة المنال فدرست ما وجدت ، أما الذى لم أجده فعلي فرصة أخرى وزمان آخـــر ان استطعت الحصول عليه .

وقد اقتضى مني هذان الأمران مداومة السفر والكتابة الى أصحاب الشأن في الخارج لامدادي بالكتب والمراجع وخاصة المراجع العبرية الباهظة الثمن والعزيز الحصول عليها

مثل معجم التوراة لجزينيوس ومعجم التوراة لكوهلر والأصول لمروان بن جناح وروضات الجنات للخوانسارى وأعيان الشيعة للعاملى وغيرهما .

فالى أولئك الذين وافونى بتلك المراجع الثمينة أقدم لهم شكرى وامتنانى أما أساتذتى الذين درست على أيديهم فكانوا مصباحا لى ينير الطريق فلا أملك لهم شكرا بقدر ما أطلب لهم الرحمة والغفران .

وأما أساتذتى الذين عليهم تتلمذت . . . .

الباب الأول

الراغب الاصفهانى

المدخل

الفصل الاول	نسبه
الفصل الثانى	حياته ومولده
الفصل الثالث	شخصيته
الفصل الرابع	مذهبه
الفصل الخامس	اهم اعماله - اغفال رجال الطبقات له

الباب الأول

الراغب الاصفهاني

المدخل :

اعتاد الباحثون عند تعرضهم لتأريخ حياة شخصية هامة أن يتناولوها من عدة جوانب أهمها :

١ - النسب والمولد
٢ - المذهب الديني
٣ - الحياة الاجتماعية
٤ - الارتباط السياسي
٥ - الثقافة والمنهج
٦ - آثاره العلمية وما انفرد فيها من آراء وملاحظ

فأصل الشخصية ونسبها ومولدها هو أول المداخل التي نستطيع أن نطل منها على هذه الشخصية فنستدل على مقومات اتجاهاتها وتقويمها وذلك بما للعلاقات الانسانية وروابط القربى من أثر ،كما أن غموض الشخصية من جانب قد يوضحه نسبها من ناحية ومن ناحية أخرى قرابته أو حتى اقامته في أغلب الأحيان ،وعلى هذا فان أغلب المؤرخين قد اختاروا هذا المدخل بدءا لأبحاثهم .

والجانب الثاني وهو الجانب الديني اذ هو جد هام بالنسبة للباحث ذلك أنه ينير له الطريق فيما بعد عند تناول الجوانب الأخرى كما أنهم يحدد بصورة شبه قاطعة أسلوب ومنهج تلك الشخصية في الحياة الاجتماعية والسياسية .

أما الجانب الثالث فهو ركن لابد منه حيث أنه يبين حياة الشخصية وكيفية تعاملها في هذا المجتمع والمؤثرات التي أثرت فيها وهل استطاع صاحبها أن يطبق مذهبه

الديني ومفاهيمه الاجتماعية أو أنه ساير حياة تختلف عن معتقدات أو أنه عاش في بيئة تخالف تلك التي كان مفروضا أن يعيش فيها .

أما الجانبان الآخران وهما ثقافته ومنهجه ثم آثاره العلمية فهذان هما خلاصة تفاعل الجوانب الأخرى بعضها ببعض فضلا عن أنهما الميزان الذي يوزن به كما أن هذا الجانب هو الذي تقيم منه الشخصية .

وليس بالضرورة أن تكون هذه الجوانب مكتملة إن لم يتوفر هذا إلا للشخصيات ذات الوزن السياسي والاجتماعي والديني الكبير والتي ارتبطت أسماؤها بأحداث أو بأمراء كان لهم دور بارز في التاريخ .

والحق أن كثيرا من هذه الشخصيات ليس لها كل هذه الجوانب حيث لم يهتم المؤرخون بما هو مفروض عليهم كما لم يمنع هذا من أن تهمل بعض الجوانب الأخرى فكان الالتجاء إلى إجراء المقارنات بين الشخصية وبعض الشخصيات المعاصرة لها أو بينها وبين من تلقوا منهم أو تلقوا عنهم فيصلون بذلك إلى نتائج قريبة ليست قاطعة في الحقيقة ولكنها أقرب إليها .

وعلى هذا نستطيع تقسيم الشخصيات التي أرخ لها إلى ثلاثة أنواع .

١ - شخصيات بارزة استطاعت أن تلعب دورا كبيرا في الحياة السياسية والدينية والاجتماعية تناولها المؤرخون من كل جوانبها كما أنهم قاموا أيضا بدراستها وتقييم أعمالهـــا .

٢ - شخصيات بارزة لم يكن لها أي نشاط سياسي أو اجتماعي تناولها المؤرخون بشئ من التفصيل اما لقيمة أعمالهم أو لارتباطها الديني .

٣ - شخصيات غير بارزة لم يكن لها أي نشاط سياسي أو اجتماعي فرضت نفسها بأعمالها ولم تلق العناية الجديرة بها من المؤرخين .

ونحن في دراستنا هذه سنقتصر على تلك الشخصية الغير بارزة من النوع الثالث والتي لم يكن لها أي نشاط سياسي أو اجتماعي ولكنها فرضت نفسها بأعمالها .

والواقع أننا حين نتصفح كتب المؤرخين فاننا نجدهم يجمعون أشتاتا من الشخصيات بعضهم يستحق أن يذكر والبعض الآخر لا يستحق وهذا راجع بلا شك الى عوامل كثيرة أهمها اتجاه المؤرخ ومذهبه الديني واتجاهه السياسي وبهذا نراهم قد رفعوا من لا يستحق وأهملوا من يستحق أو بالاشارة الخفيفة اليه .

ومن هؤلاء الذين ظلموا أو أهملوا ولم يأخذ مكانه الصحيح تلك الشخصية التي نؤرخ لها ونتناولها بالتفصيل على قدر ما تتيح لنا المصادر لما تبين لنا من قيمة أعمالها وأصالة آرائها .

الفصل الأول

الراغب الاصفهاني

تعرضنا في مدخل هذا الباب لأركان الشخصية التي يراد التعرض لها وحددنا أهم هذه الأركان :

١ - الأصل والنسب والمولد .

٢ - المذهب الديني .

٣ - الحياة الاجتماعية .

٤ - الارتباط السياسي .

٥ - الثقافة والمنهج .

٦ - المؤلفات وأهم الآراء .

فاذا ما قمنا بتطبيق هذه الأركان على حياة الراغب فاننا حتما سوف نخرج بنتيجة غير مرضية وذلك راجع الى سببين :

١ - أن أخبار الراغب الأصفهاني فيما تعطينا المصادر قليلة جدا لدرجة أن ما كتب عنه لا يتعدى بضعة سطور .

٢ - كما أنه حتى هذه الأخبار التي أ[illegible] من هذه المصادر نجدها متضاربة أحيانا وعلى هذا فانه يجب علينا الحذر في تناولها وعدم الاعتماد الا فيما تجمع عليه المصادر

ولعل أكمل هذه الأركان في دراسة حياة الراغب هو ركن الثقافة والمؤلفات وهو ما جعلنا نضعه في الطبقة الثالثة التي فرضت نفسها بأعمالها وليس باتصالها بأمراء أو مشاركتها في السياسة . ونحن في دراستنا هذه سوف نستغل هذا الركن الهام عوضا عن الأركان الأخرى التي لا نجد لبعضها أثرا فيما تعطينا المصادر وقد أتاحت لنا هذه القلة القليلة فرصة كبيرة لسرد ما جاء بها عن الراغب :

اسمه ونسبه :

هناك اختلاف حول اسمه وكنيته فيما توافينا به المصادر وهو فيما نرى اختلاف يمكن القطع فيه وعلى هذا فسنبدأ بتحقيق اسم الراغب وفقا لتسلسل المصادر التي كتبت عنه للبحث فيها ونود أن نشير هنا الى كيفية استخدامنا لتلك المصادر فالرجل كما قلنا قد تنازعته الفرق الاسلامية من سنية ومعتزلة وشيعة على أن أهم الذين قد تناولوه فريقان : فريق من أهل السنة وفريق من أهل الشيعة وسنبدأ بتحقيق اسمه من كتب مؤرخي أهل السنة ثم ننتقل بعد ذلك الى كتب الشيعة ثم بعد ذلك في كتبه .

وأول المصادر هو كتاب " تتمة صوان الحكمة " لظهير الدين البيهقي وهذا الكتاب من نظرنا من أهم الكتب فيما روت عن حياة الراغب الأصفهاني فقد ولد مؤلفه سنة ٤٩٩ هـ(١) كما أنه يتشابه كما سنرى فيما بعد من حياة الراغب نفسه فقد ولد ظهير الدين في نفس البيئة تقريبا التي ولد فيها الراغب وهي بيئة فارس حيث ولد في سابزوار من نواحي بيهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان بينما ولد الراغب في أصفهان(٢) القريبة منها وكان البيهقي سنيا جاعيا في بيئة أكثر أهلها من الشيعة(٣) ورغم أهمية هذا المصدر فان اتجاهه ومنهجه فيه لم يسمح لنا أن نستشف الكثير منه وذلك أنه جرى في هذا الكتاب مجرى مصنف كتاب "صوان الحكمة" لأبي سليمان محمد بن طاهر بن برام السجستاني حيث اكتفى فيه بنقل ما عزى الى هؤلاء الحكماء دون أن يهتم بتحقيق حياتهم وأنسابهم .

فعن اسم الراغب وكنيته ولقبه يقول ظهير الدين في العنوان (الحكيم أبوالقاسم الحسين بن الفضل الراغب) ثم استرسل بعد هذا العنوان الى التعريف بالراغب

---

١ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي
٢ - محاسن أصفهان / المفروخي ص ٣٢
٣ - كنوز الاجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٨

(كان من حكماء الاسلام فهو الذى جمع بين الشريعة والحكمة فى تصانيفه) وهذا الكتاب هو الذى قام محمد كرد على بتحقيقه ونشره بعد ذلك مغيرا اسمه الى تاريخ حكماء الاسلام .

وثانى مصدر من مصادرنا الهامة هو "بغية الوعاة" للسيوطى وهو فيما يعطينا أكثر قليلا وأفصح من ظهير الدين البيهقى الا أننا نجد أن جميع المصادر التى جاءت بعده تخطئه فى كتابة اسم الراغب فنص السيوطى كما ورد فى البغية (١) (المفضل بن محمد الأصفهانى الراغب) قد خطأه جميع المصادر التى قامت بالتأريخ للراغب فيما بعد وذكرت أن اسمه هو محمد بن المفضل .

ومما نلاحظه فيما سبق أنه ليس هناك اتفاق على اسمه كما أنه لم تبذل أية محاولة لتحقيق اسمه ونسبه .

ومن المصادر التى تناولت الراغب أيضا "كشف الظنون" حيث قام حاجى خليفة بايراد تعريف كامل لاسم الراغب حين تحدث عن كتاب المفردات فيقول : (٢)
كتاب "المفردات فى اللغة" لأبى القاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهانى) .

أما مصباح السعادة فقد تناول الراغب بتعريفين مرة فى الكلام عن علم المحاضرة ومرة حين عده من المفسرين فجاء التعريفان كالآتى : (المفضل بن محمد الأصفهانى أبوالقاسم الراغب وهو بهذا يكون قد تناوله مرة بالمفضل ومرة بالفضل ، وهذا الازدواج فى اسم الراغب نجده كثيرا فى كتب المؤرخين فمرة يكتب ومرة يكتب الفضل وهو اختلاف بسيط لا يغير من الأمر شيئا .

---

١ - ٣٩٦ص ٢

٢ -ص ١٧٧٣

أما بقية المصادر التي تناولت الراغب بعد ذلك فكلها حديثة منها معجم المطبوعات العربية حيث ورد فيه (١) (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل)بن محمد المعروف بالراغب ويسميه السيوطي المفضل بن محمد الراغب) . وهديه العارفين لاسماعيل باشا البغدادي فقد ورد فيه (الحسين بن محمد بن مفضل ،الامام أبوالقاسم المعروف بالراغب الاصفهاني)أما قاموس الاعلام فقد ورد الاسم فيه كالآتي (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل) .

وآخر تلك المصادر هي دائرة المعارف(٢)فقد تناولت الراغب باكم جهده ولكنها خطأت السيوطي (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل وفي بعض الروايات المفضل وقد ورطأ فيخطأ السيوطي المفضل بن محمد) .

ننتقل بعد ذلك في البحث عن اسمه ونسبه الى كتب الشيعة الذين تناولوه .

وأولى الملاحظ التي نلاحظها في هذه الكتب أنها قد تناولت الراغب بشيء من التفصيل أكثر من مؤرخي أهل السنة كما أنهم أيضا قد قاموا بدراسات لآرائه وتراثه على أن أهم ما اهتموا به كتبه ومؤلفاته .وأول المصادر الشيعية التي تناولت الراغب كتاب " روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات " لمحمد باقر بن الحاجي أمير زين العابدين الموسوي الخوانساري الاصفهاني من علماء القرن التاسع الهجري وقد ضمن كتابه هذا تراجم العلماء والحكماء والأدباء ورتبه على حروف المعجم وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن مؤلفه من أهل أصفهان نفس بلدة الراغب ـ كما أنه قد تام فيه بالتصدى لتحقيق مذهب الراغب بالاضافة الى أنه أشار إلى المصادر التي استقى منها معلوماته وقد اهتم بان يرد اسم الراغب كاملا مع بعض المديح له

. . . . الابن محمد بن المفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني)ثم يرد بعد ذلك نص السيوطي ولكنه غفل عن تحقيق النسب والسبب في

١ - ص ٩٢١

٢ ج ٩ ص ٢٤٩٢

ذلك أنه قد جاء بهذا النص لا للكلام عن اسم الراغب وكنيته ولكن لتحقيق مذهبه . ومن الغريب أنه في هذا الكتاب حين تصدى لنقد نص السيوطي في تحقيق مذهبه أن قال (. . ولم يرد على ما نقلنا وذلك نعدم بصيرته بحال الرجل كما عرفته وستعرف مع اشتباهه الكثير من اسمه ونسبه وطبقته)الا أنه قد أورد نصين تناولا اسم الراغب وهذان النصان غير موجودين الآن أحدهما لصاحب معجم الأدباء :

الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني)ويبدو أن ترجمة الراغب في معجم الادباء موجودة في الجزء المفقود منه حيث لم نعثر في المعجم على ترجمة للراغب والنص الآخر لكتاب تاريخ أخبار البشر وهذا الكتاب أيضا غير موجود الآن الا أنه أيضا لم يهتم باستخراج اسم الراغب منه واكتفى بنقل كنيته وهي أبوالقاسم الأصفهاني وان كان غيره قد اعتمد على هذا الكتاب في استخراج اسم الراغب .

والمصدر الثاني من كتب الشيعة التي تناولت الراغب هو كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين الحسيني العاملي وهو كتاب كبير يتعدى الثلاثين جزءا ، رد مجلد المؤلف للكتابة عن أمراء وحكماء وأدباء الشيعة . وهذا الكتاب هو أكمل المصادر حيث يتناول الراغب من وجوه عديدة واهتم فيه بمحاولة تحقيق اسمه ومذهبه علاوة على ايراده جميع مؤلفات الراغب وقد أورد العاملي اسم الراغب كالآتي :

(أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل أو المفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني)

وهو بهذا يكون قد احتار بين نص السيوطي والنصوص الأخرى الا أنه يأخذ على السيوطي أنه قد سماه المفضل بن محمد الأصفهاني مع أن اسمه الحسين وهو بهذا لم يهتم بالاختلاف بين المفضل والمفضل ومحمد بن المفضل والمفضل ابن محمد وقد أورد أيضا نصا لكتاب آخر تناول الراغب وهو كتاب " رياض العلماء وهو أيضا غير موجود وتعريفه

الراغب فى هذا الكتاب هو (الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصبهانى) .

يبقى بعد ذلك آخر هذه المصادر الشيعية وهو كتاب "الذريعة الى تصانيف الشيعة" لآغا بزرك الطهرانى والمؤلف فى هذا الكتاب قد قام باستعراض كتب أهل الشيعة مع نبذة مختصرة لأسماء المؤلفين . فامام اسم كتاب الراغب الذريعة الى مكارم الشريعة كتب آغا بزرك (الذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ،الشيخ أبى القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المتوفى سنة ٥٦٥ هـ كما أرخ فى تاريخ أخبار البشر) .

وبهذا المصدر نكون قد انتهينا من القسم الثانى من تحقيق اسمه ونسبه على هذا القسم أن مؤرخى الشيعة قد تناولوا الراغب بدقة أكثر من مؤرخى أهل السنة وأولوه اهتماما كبيرا لم يحظ به عند غيرها وكما سنرى فى الفصل القادم حين نتحدث عن حياته ومذهبه ولا نترك هذا الجزء قبل أن نشير الى أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة قد اعتمدوا على ثلاثة مصادر :

١ - تاريخ أخبار البشر .

٢ - بحر الاسانيد

٣ - رياض العلماء .

ويبدو أن هذه المصادر قد تناولت الراغب بتفصيل كبير ودراسة أكبر وكنا نود الرجوع الى هذه المصادر غير أننا لم نستطع العثور عليها وذلك أن كتب الشيعة كما هو معروف غير متوفرة لدينا كما أنه من المحتمل أن تكون هذه الكتب قد فقدت .

وننتقل الآن الى تحقيق اسم الراغب من مقدمات كتبه وأول هذه الكتب - "كتاب المفردات فى غريب القرآن" وهو كتاب منشور وفيه يلاحظ أن الناشر قد أورد اسم المؤلف محرفا عن الاسم الذى جاء بمقدمة المؤلف نفسه فتعريف الاسم كما جاء بمقدمة

الناشر هو (أبوالقاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الاصفهانى) .

أما ما جاء بمقدمة المؤلف فهو (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب) و

ولسنا ندرى لماذا قام الناشر بهذا التحريف والتناقض بين المقدمتين وكان الأولى به ايراد التعريفين كما هو ظاهر فى الكتاب حيث كتب على صدرها (هذا كتاب .... المعروف بالراغب الأصفهانى) وفى مقدمة المؤلف (قال الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) والمقدمة الثانية هى مقدمة كتاب "المحاضرات" قد قام الناشر بطبع الكتاب دون أى تعريف بالمؤلف وقد جاء اسم الراغب فى مقدمة الكتاب للراغب نفسه (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد المفضل الراغب) .

والمقدمة الثالثة التى هى مقدمة كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين وفيها ورد اسمه (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) .

والمقدمة الرابعة هى مقدمة كتاب الزريعة الى مكارم الشريعة وجاء الاسم فيها (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) .

أما مقدمة التفسير فلم يرد فيها الاسم كاملا ، وعلى هذا فيكون الاسم قد توحد فى ثلاثة من كتبه وهى المحاضرات وتفصيل النشأتين والذريعة وقد جاء الاسم فيهم (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب) ، أما كتاب المفردات سواء المطبوع منه أو المخطوط فقد جاء الاسم فيه (الشيخ أبوالقاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب) .

وبهذا فلا يكون الاختلاف كبيرا فى صحة الاسم فى مقدمات كتبه ويكون الاختلاف محصورا بين الفضل والمفضل .

ومن هذا الحصر لأسماء الراغب وكنيته وألقابه فى كتب المؤرخين ومقدمات كتبه نلاحظ ان :

١ - لم يأت الاسم كاملا الا فى مقدمات كتبه ثم فى كتب مؤرخى الشيعة .

٢ - أما السيوطى قد أخطأ فى نقل اسم الراغب رغم وقوفه على كتبه كما ذكر .

٣ - أن كثيرا من المؤرخين قد قاموا بتحريف الاسم من ناحية نزع أداة التعريف من أسماء وهو خطأ قد يبدو بسيطا في نظر كثير من الباحثين ولكنه في الواقع هام جدا بالنسبة لدراستنا نظرا لارتباط الراغب ارتباطا وثيقا بأهل الشيعة .

٤ - ان أغلب الكتب قد اتفقت على أن كنيته هي أبو القاسم ولقبه الراغب ونسبه الاصبهاني واسمه الحسين .

ومن هذا وفيما تجمع عليه المصادر يرجح ان اسمه هو : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الاصبهاني .

الفصل الثاني

حياته ومولده

بعد أن انتهينا من تحقيق اسم الراغب الأصفهاني يجدر بنا أن ننتقل الى التأريخ للجانب الثاني له وهو حياته ومذهبه ،وهنا فاننا نجد أن الأمر يزداد صعوبة ويضيق الأفق بالنسبة لهذا الرجل . ولقد كان هذا الأمر جديرا بأن يدفعنا للقفز من هذا الفصل الى الذى يليه وهو ما أوضحنا أمره في مدخل هذا الباب حين تكلمنا عن أركان الشخصية وأنواعها وبينا أن الراغب من الشخصيات التى فرضت نفسها بأعمالها وليس بما في حياتها الا أن ما بين أيدينا وان كان قليلا بالاضافة الى ما نستشفه من دراسة مؤلفاته وهو أقرب للاستنتاج منه للتقرير نستطيع أن نلقى به بعض الضوء وذلك حين نبحث في كتب المؤرخين عنه فاننا لا نجد له أثرا الا بضعة سطور لا تفصح عنه شيئا . وكما سبق أن قلنا من أن المؤرخين الذين تناولوا الراغب ينقسمون الى قسمين . قسم سنى وقسم شيعى أو كما يحلو لبعض مؤرخى الشيعة تناوله العامة والخاصة هنا هم مؤرخو الشيعة.

مولده :

لم تذكر كتب المؤرخين تاريخ ولادته ولا مكان نشأته وان كانوا قد ذكروا تاريخ وفاته ولكن الأمر اليقين أنه قد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى وقد أجمعت على هذا معظم المصادر وأنه تنقل بين البيئتين رحل الى الثانية في أواخر أيامه فالمفروخى (١)حين قام بحصر علماء القرن الخامس بأصفهان يذكره بأنه من المتأخرين الذين جاءوا في نهاية القرن الرابع فيقول تحت عنوان (متأخرى أهل العلم بأصبهان) : (ثم أقفيهم بذكر المتبحرين في النحو والاعراب المتبصرين بغرائب الأبنية ولغات

---

١ ـ محاسن أصفهان / المفروخى ص ٣٢

الأعراب . . . . . ١ المقتضبين للاشعار المنقحة والمخترعين للمعاني المستطحة فـــي العربية والفارسية والموقعين المحسنين انتشاء . والمترسلين المجيدين املاء ولم أفـرده طبقة من الطبقات عن اخوانها اذا الكل حاصلة على التشارك متواصلة التشابك فمـــن متقدميهم . . . . . وأبوالقاسم الراغب)أى متقدمي المتأخرين .

كذلك ذكره الزركلي في قاموسه الأعلام على أنه من أهل أصفهان أما عن انتقاله منهـا فلا تعطينا المصادر شيئا عن سبب هذا الانتقال ومغادرته لها فيذكر أحمد عطية فـــي القاموس الاعلامي حين تكلم عن الذين تخرجوا من أصفهان الراغب الأصفهانـي (فقيــه وأديب وهو الحسين بن محمد بن المفضل عاش ابان القرن الخامس الهجري وسكــــن بغداد ،كذلك اسماعيل باشا البغدادي في " هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) الأصفهاني الحسين بن محمد بن مفضل الامام أبوالقاسم المعروف بالراغب الأصفهاني نزيـــل بغداد)كذلك فيما ينقل السيد محسن الأمين العاملي في كتابه "أعيان الشيعة عـــن كتاب الروضات (الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصفهان) .

أما الخوانساري في " الروضات فيتفق معهم بأن وفاته لم تكن بأصفهان كما نقل عـــن كتاب تاريخ أخبار البشر .

ومن هذا يتبين لنا أنه قد عاش فترة حياته الأولى في أصفهان ثم انتقل منها الـــى بغداد حيث توفي بها ،ومن وفاته هناك شبه اجماع بين المصادر على أنها في سنـــــة ٥٠٢ هـ غير أن بعض المصادر قد أرخت تاريخا غير هذا فاسماعيل باشا البغدادي يذكر أنه توفي سنة ٥٠٠ هـ -كذلك محمد كرد علي في نشره لكتاب " تاريخ حكماء الاسلام " حين علق على اسم الراغب (توفى الراغب سنة ٤٠٢ هـ في الروايات أى في أول المائة الخامسة)ثم عاد بعد ذلك في كتابه "كنوز الأجداد " وقرر أن وفاته كانت في سنـــــة ٥٠٢ هـ أما الخوانساري فيذكر تاريخا آخر وهو سنة ٥٦٥ هـ ثم يعقب على هذا بقولـــه

(وذلك قبل وفاة جار الله الزمخشري) . كذلك أغابزرك الطهراني فانه ينقل أيضا عن تاريخ أخبار البشر أن الوفاة كانت سنة ٥٦٥ هـ .

وقد قام السيد محسن الأمين العاملي بتحقيق سنة وفاة الراغب ونقد هذه المصادر المخالفة (١) (أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل أو الفضل بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني توفي سنة ٥٠٢ هـ - وفي كشف الظنون في أخلاق راغب خمسمائة ونيف وفي الروضات الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصفهان وفي بغية الوعاة أنه كان في أوائل المائة الخامسة ولكن الصواب في أوائل المائة السادسة وأخطأ أيضا في اسمه فسماه المفضل بن محمد الأصفهاني مع أن اسمه الحسين وفي الروضات صفحة ٢٥٦ هـ عن تاريخ أخبار البشر أنه توفي سنة ٥٦٥ هـ وهو غلط فانه قال بعد ذلك أن وفاته قبل وفاة جار الله الزمخشري مع أن الزمخشري توفي سنة ٥٣٨ هـ ويأتي عن كشف الظنين أن الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة للمترجم والغزالي قد توفي سنة ٥٠٥ هـ) وفي هذا تتفق معه دائرة المعارف الاسلامية والواقع فان العاملي هو المؤرخ الوحيد الذي تعرض لشخصية الراغب بشيء كن التدقيق ن بين جميع من تناولوه فقد اهتم بتحقيق الاسم والوفاة والمذهب ولكن بصورة ضيقة ومقاله مقتضية فمن الثابت فعلا أن الغزالي كان يستصحب معه كتاب "الذريعة" (٢) الى مكارم الشريعة حتى أن بعض المؤرخين عدوه من كتبه كما جاء في خاتمة كتاب "احياء علوم الدين وعلى هذا فلابد أنه توفي قبل الامام الغزالي أو حتى عاصره على الأقل كذلك من ذكر أنه توفي قبل جار الله الزمخشري والمعروف بان الزمخشري قد توفي سنة ٥٣٨ هـ .

---

١ - أعيان الشيعة / السيد محسن الأمين العاملي ص ٢٢٠

٢ - دائرة المعارف الاسلامية (مادة راغب)

الفصل الثالث

شخصية الراغب :

تتجلى شخصية الراغب من خلال تآليفه (وليس من خلال مادته) ذلك أنه لا يتكلم أبدا عن نفسه أو عمن لقيهم وأخذ عنهم، انما هي تآليفه فقط التي تعطينا تلك الصورة عنه والواقع فبرغم ما تعطينا هذه التآليف من فائدة فانها توقعنا أيضا في حيرة كبيرة فصفة الالتزام التي يلتزم بها العالم أمام علمه غير موجودة عند الراغب ونحن نعتني هنا بالالتزام التخصصي فعالم اللغة يكتب في اللغة ومحيطها وكذلك عالم التفسير وغيره أما بالنسبة للراغب فالوضع يختلف ذلك أنه لم يؤلف كتابين في علم واحد بل جاءت كتبه كمثل واحد في علم مستقل وقد أدى هذا بالتالي بكثير من المؤرخين لتعداد الترجمة له فيما ذهب منهم في تصنيف كتبه، فمن خلال ما ألف تظهر لنا جوانب عديدة في شخصيته وعلى هذا فقد تناوله المؤرخون كل فيما نظر ووقع تحت يده من كتبه فالبيهقي (١) عده حكيما من أصحاب المصنفات، والسيوطي (٢) أيضا عده من أصحاب المصنفات وذلك من تآليف عديدة وقف عليها (المفضل بن محمد الأصفهاني الراغب صاحب المصنفات كان في أوائل المائة الخامسة له مفردات القرآن - أفانين البلاغة - والمحاضرات وقفت على الثلاثة) كذلك يرى الزركلي أنه (أديب كبير من العلماء) أما أحمد عطية في القاموس الاعلامي فيذكره بانه خطيب وأديب لتعدد دراساته (الراغب الأصفهاني فقيه وأديب وهو الحسين بن محمد بن المفضل، عاش ابان القرن الخامس الهجري وسكن بغداد واشتغل بعلوم التفسير والحكمة والأدب) ونحن نرى أن الذى دفعه الى وصف الراغب بهذا هي الكتب التي أوردها له في التعريف به فكل كتاب متصل بعلم يختلف عن الآخر

---

١ - تتمة صوان الحكمة/البيهقي ص ١٠٤
٢ - بغية الوعاة/السيوطي ص ٣٩٦

فمن الكتب التي ذكرها للراغب وهي :

١ - الذريعة الى مكارم الشريعة وهو كتاب في التصوف .

٢ - المفردات في غريب القرآن وهو كتاب في اللغة .

٣ - محاضرات الأدباء وهو كتاب في النوادر والروايات .

٤ - أفانين البلاغة وهو كتاب متصل بالأساليب وأقسام البلاغة .

كذلك طاشكبرى زادة (١) يعتبره من أصحاب المصنفات أما سركيس (٢) فيعرفه بأنه صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة والكلام ، ... فانه صاحب اللغة والعربية لكتابة المفردات والحديث لكتابه المحاضرات والأخلاق لكتابه تفصيل النشأتين والحكمة لكتابه الذريعة الى مكارم الشريعة ويبدو أنه قد نقل هذا التعريف عن الخوانساري وبهذا فان هذه الطبقة من المؤرخين لم يستطيعوا تحديد صفة وشخصية الراغب الأصفهاني فأطلقوا ما شاءوا من أوصاف عليه وفقا لما وقع تحت أيديهم من كتب .

أما الطبقة الأخرى من المؤرخين ونعني بها طبقة الشيعة فالراغب يعني عندهم الكثير فهو ليس صاحب الصفات المذكورة فقط ولكنه أعلى وأكبر من هذا بكثير فهو في نظرهم حكيم صوفي في المقام الأول ولا يفوتنا هنا ما نعني به الحكمة عند الشيعة بل عند الراغب أيضا فيما أورد عن هذه الكلمة بمفرداته (٣) (والحكمة اصابة الحق بالعلم والعقل فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وايجادها على غاية الأحكام ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل " ولقد آتينا لقمان الحكمة ") أما عن الفقه فهو عنده أخص من العلم ففيه يقول (٤) (الفقه هو

---

١ - مصباح السعادة/طاشكبرى زاده ص ٢٢٦

٢ - معجم المطبوعات/سركيس ص ٩٢١

٣ - مفردات غريب القرآن/الراغب الاصفهاني (مادة الحكمة)

٤ - نفس المصدر/ (مادة فقه)

التوصل الى علم غائب بعلم شاهد وهو أخص من العلم، قال : فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا - ولكن - لا يفقهون) الى غير ذلك من الآيات والفقه العلم بأحكام الشريعة، يقال فقه الرجل فقاهة اذا صار فقيها وفقه أى فهم وفقهه أى فهمه وتفقه اذا طلبه فتخصص به قال : "يتفقهوا فى الدين ") .

فالراغب اذن فى نظر الشيعة من أصاب الحق بعقل وعلم وتفقه وأحاط بأحكام الشريعة بهذا كان وصفهم له بالحكيم والفقيه والصوفى . فالخوانسارى أورد له صفات كثيرة وهى وان كان بعضها عادى فان فيها أيضا ما يحير فما جاء بالتعريف به (الامام الأديب والحافظ العجيب أبوالقاسم حسين بن محمد بن المفضل بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة والكلام وعلوم الأوائل وغير ذلك ،فضله أشهر من أن يوصف ووصفه أجل من أن يعرف وكفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة وفيما تحقق له من اللغة خاصة) (١) كذلك أورد الخوانسارى تعريف صاحب معجم الأدباء للراغب (. . . أحد أعلام العلم بغير فن من العلوم أديبها وحكيمها) ثم يورد بعد ذلك عند الحديث عن وفاته ناقلا عن كتاب أخبار البشر (وكانت وفاته كما فى تاريخ أخبار البشر معبرا عنه بالشيخ أبى القاسم الأصفهانى أحد الحفاظ) وفى هذا فليس بين أيدينا دراسات تؤيد هذا الوصف سوى دراساته القرآنية التى تدل على دراسة عريضة

ويدفعنا الى الاعتقاد بأن الراغب الأصفهانى كان يقوم بالتدريس فى أحد المعاهد التى كانت منتشرة فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت كما تدل قصة دخول البيضاوى لشيراز (٢) لتولى القضاء بها تصادف معهدا أو مدرسة يقوم فيها شيخ بالتدريس . ويظهر هذا جليا من استعراض مؤلفاته فهى جميعها مكملة لبعض متممة لما قبلها - مجال الدراسة فيها الانسان ما له وما عليه .

---

١ - روضات الجنات/الخوانسارى ص ٢٤٩

٢ - كشف الظنون/حاجى خليفة ص ٦٦٥

أما العاملي فقد قام بجمع أقوال العلماء فيه (١) اذ يقول (فضله أشهر من أن يذكر وعلمه أعرف من أن يوصف ومؤلفاته سائرة سير الشمس والقمر وفي رياض العلماء : الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصفهاني العالم الفاضل الأديب المفسر اللغوي المتكلم الحكيم الصوفي المعروف بالراغب الأصفهاني كان من مشاهير حكماء الاسلام) .

ومن هذه الأقوال فاننا نرى أن مؤرخي الشيعة قد خلعوا عليه أوساطا وألقابا لا تعطى جزافا فهو لديهم امام أي شخص يقتدى به وحافظ ومفسر ولغوي وأديب آثار الاعجاب وحظي القبول . وكتابه " المحاضرات " يعطينا صورة أخرى له صورة عن رجل الدنيا الذي عرف خيرها وشرها وسرورها وحزنها أو كما ظرفا ملئ ظرفا ،ووعاء عشي جدا وسخفا من شاء وجد منه ناسكا يعزيه ويبكيه ومن شاء صادف منه فاتكا يضحكه ويلهيه)فقد جمع في هذا الكتاب أطرافا شتى فمن الحديث عن الدين والصلاة والسيادة والعقل والهوى والكتابة والفضيلة والعفة نراه بجانب هذا يتحدث عن الزني والمجون والخمر واللواط بأفكه ما حكي عنه وأنكت ما قيل فيهم . فقد كان يرى أن لكل مجال كلام ولكل مقام مقالة (ومن لا يتحلى في مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصرى صورة ممثلة) .

---

١ ـ أعيان الشيعة/للعاملي ص ٢٢٠

الفصـــــل الرابـــــع

مذهبـــــه :

ما زلنا ونحن في هذا الفصل نحقق مذهبه نحاول أن نجلي بعض الغموض عن شخصية الراغب ولعل التحقيق لمذهبه أشد تعقيدا وغموضا من تحقيق اسمه وحياته وذلك أن تقرير المذهب يرتبط ارتباطا وثيقا بناحيتين أولاهما ثقافته وثانيهما شخصيته .

فهناك ارتباط وثيق بين الثقافة والشخصية فانهما معا يعنيان حياة الرجل العامة والثقافية ولقد درج الانسان منذ نشأة الخليقة سواء في طوطميته أو وحدانيته أن يتلقى معتقداته الدينية ومذاهبه فيها عن طريقين :

١ - اما وراثة عن أجداده وأسلافه كأن ينشأ على دين آبائه وأجداده .

٢ - أو بالايمان فيما يعتقده أنه حق .

فالأولى ترتبط بالبيئة والثانية ترتبط بالثقافة : فتلك التي ترتبط بالبيئة فان المعيار فيها هو العادة والتقليد فهذا الانسان الذي ينشأ في مجال سواء أكان اسلاميا أو غيره تغرز فيه قيم هذا الدين ومبادئه منذ الصغر فينشأ على هذا سائرا على منوال من سبقوه وهدوه دهورا فيعتنق مبادئهم ويمارس عاداتهم ويأخذ بتقاليدهم ويكون صعبا عليه التغيير والتبديل ويدلنا التاريخ على كثير من هذا فكم من أنبياء وحكماء رجموا لا لشيء الا لأنهم حاولوا أن يغيروا من عقيدة قومهم . والثانية التي ترتبط بالثقافة فهي نفس هذا الانسان الأول في بيئته ووسط أهله بعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ولكن لسبب ما قرر أن يغير من معتقداته حيث اصبح ايمانه بها ضعيفا أو أصبح لا يؤمن بها وهذا السبب لا يخرج عن ثلاثة :

١ - اما بهداية من الله ويختص بهذا الأنبياء والحكماء .

٢ - واما بتأثير ثقافته التى فتحت له مجالات أخرى يفكر ويقارن ليهتدى وهو بهـــذا يغير ويبدل معتقداته وآراءه ويصبح مخالفا للبيئة التى يعيش فيها .

٣ - واما بتأثير الجوار كأن يكون مجاورا لبيئة أخرى بها قوم على غير معتقداته فيتأثـر بهم وأمثال هذا النوع كثير فى الأمة حيث قامت العناصر اليهودية والمسيحية والمجوسيـة بالتأثير فى بعض الجماعات الاسلامية كالمتصوفة والشيعة على أننا نقرر أيضا أن أولئك الذين أخذوا الايمان بالاعتقاد نتيجة تحكيم العقل فيما فكروا أنهم لا يتركون معتقداتهم السابقـة كلية بل تكون هناك رواسب منها فى عقولهم الباطنة تصبغ معظم تلك المعتقدات الجديـدة ولنا فى هذا أمثلة كثيرة فى اليهود الذين دخلوا الاسلام وحملوا معهم تلك الرواسب اليهودية من تجسيم وتشبيه وتلك العناصر المجوسية التى بزرت فكرة الثنائية فى العالم الاسلامي كذلك بعض المعتقدات الأخرى مثل الرجعة والمهدية والبداء وبعض الطوائـف المسيحية الذين مهدوا لانتشار مبدأ الحلول والظهور .

فاذا ما حاولنا تطبيق هذا على الراغب لوجدنا أنه قد نشأ فى بيئة اسلامية غير عربيـة تدين بمذهب الشيعة بمختلف أنواعه كذلك يوجد بها بعض المجتمعات السنية على مذهـب أبى حنيفة والشافعى وأيضا تغص بالكثير من الرواسب الفارسية القديمة فهل سار الراغب فـى تيار أهل بيئته ؟ فدان بما يعتقدون أو أنه بفضل ثقافته الواسعة وفكره المتحرر قد غايـر القوم وانحاز الى مذهب آخر هداه اليه فكره وعقله ؟ وهل كان للجوار أثره فى هذا ؟ حيث كانت تجاوره مجتمعات سنية كثيرة وبعض الفرق المجوسية المصبوغة بصبغة اسلامية .

والواقع فان ما دفعنا الى هذا هو التنازع الفرق الاسلامية لهذا الرجل من جانب ومن جانب آخر فانه لم يلتزم بمنهج أهل مذهب معين كما أنه لم ينص صراحة أو مواربة عن مذهبه مما حدا بالمؤرخين أن يحتاروا فى نسبته وبصفة كل واحد كيفما يريد .

حقا ان الراغب قد نشأ فى بيئة شيعية بين أهل يتشيعون لأهل البيت الكريم يدفعهـم

الى هذا أمران :

أولهما : هو بعض الرواسب القديمة المتصلة بعقيدتهم التي دأبت على تشبيل تعاليم العقيدة في صلة الالهية بحكامهم فكان لابد من أن يكون هناك من يمثل تلك العقيدة وليس أحق من تمثيلها غير أهل البيت الكريم نسل الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : وهو أمر سياسي اذ أنهم كانوا يرون أن أهل البيت هم أحق الناس بالخلافة وأكرم عليهم وذلك لصلة النسب التي نشأت بينهم وبين الحسين بن علي رضي الله عنه اذ أنه بزواجه من ابنة كسرى قد فتح باب المصاهرة بين العرب والعجم ويكونوا قد صاهروا الرسول الكريم وعلى هذا تشايعوا لأبناء الحسين رضي الله عنه الذين أتوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم وكسرى ملك الفرس . فالتشيع اذا والغلو فيه ليس غريبا على تلك البيئة أو مضادا لعقائدها بل وافق هواهم وسكن في قلوبهم وفي هذا يقول أبو الأسود الدؤلي (١)

وأن وليدا بين كسرى وهاشم اكرم من نيطت عليهم التمائم

هو نور الله موضع سره ومنبع ينبوع الامامة عالم

ولكن ينبغي لنا هنا أن نتريث قليلا أمام فكرة التشيع ومرد ذلك أن المؤرخين قد ربطوا دائما بين الاعتقاد والعمل التي كانت أصلا فكرة الخوارج بأنه لاعقد بدون عمل أي لا ايمان بدون قول وعمل . فهل كل من أحب أهل البيت يعتبر شيعيا أم أن هناك صفات وعقائد معينة يؤمن بها الشيعي ويكلف بها .

فحب الرسول (ص) وأهل بيته فرض على المسلمين جميعا كما أنه هوى لايقاوم وفي هذا يردد الامام الشافعي (٢) :

لو كان رفضا حب آل محمد فليعلم الثقلان أني رافض (٣)

---

١ - نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام/ جـ ٢ د .علي سامي النشار ص ١٣١

٢ - نفس المصدر ص ١٧٠

٣ - الملل والنحل ، جـ ١ ص ١٥٩

ومما يقال أيضا من أن الامام أبوحنيفة كان هواه مع الزيود إحدى فرق الشيعة ومن الشيعة يورد الشهرستاني هذا التعريف : (١)

(هم الذين شايعوا عليا عليه السلام على الخصوص وقالوا باماته وخلافته نصا ووصاية إما جليا وإما خفيا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده . قالوا وليس في الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الامامة بنصبهم بل هي قضية اصولية . هو ركن الدين ،لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله وتفويضه إلى العامة وإرساله ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبرى قولا وفعلا وعقدا إلا في حالة التقية ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ولهم في مقدمة الإمامة كلام وخلاف كثير وعند كل تعدية وتوقف مقالة ومذهب وضبط وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وامامية وغلاة واسماعيلية وبعضهم يميل في الأصول الى الاعتزال وبعضهم الى السنة وبعضهم الى التشبيه) .

والواقع ان هذا النص الهام للشهرستاني يضع أيدينا على الأصول الأولى للعقيدة العامة للشيعة وكذلك إلى إختلاط هذه المذاهب بعضها ببعض وساحت الأصول الاعتقادية من فرقة إلى أخرى ذلك أننا نرى تلك الأصول قد ابتدأت في التوزع ومالت الفرق إلى التفتت والإنزواء وكان هذا هو ما دعا كثيرا من المؤرخين الى الخلط بين الفرق والاضطراب في تحقيق مذاهب العلماء ومثالنا في هذا هو الراغب الأصفهاني الذى تنازعته الفرق ونسبته كل فرقة الى نفسها ويدلنا على هذا من نص الشهرستاني تلك الفقرة التي يقول فيها (وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وبعضهم يميل في الأصول إلى الإعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه) . اذا فقد كان هناك شيعة استطاعوا التغلب على الغلو وعلى بعض الأصول التي تعتبر ركنا هاما في العقيدة الشيعية كالزيود مثلا الذين مالوا

---

١ - الملل والنحل ،جـ ١ ص

الى المعتزلة واعتنقوا أصولهم والجعفرية والعدلية الذين مالا الى أهل السنة . فعن الزيود يقول الشهرستاني (.... وزيدا بن علي لما كان مذهبهم هذا المذهب أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم فتتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة مع اعتقاد واصل بأن جده علي بن أبي طالب في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأصحاب الشام ما كان على يقين من الصواب وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلها معتزلة) . ثم هناك أيضا الجعفريةالتي مالت الى أهل السنة والعدلية التي نظرتالى الحياة نظرة مادية وهي نظرة الواقع والاعتراف بما هو موجود ونظارة روحية كما أن هناك أيضا بعض الفرق التي مالت الى الاعتقاد بالارجاء والقدر والجبر .

ومن هذا نستطيع القول بأنه في تلك الفترة التي نقدرها فيما بين سنة ٤٥٠ - ٥٠٠ هـ كانت روح الغلو والتعصب قد خفت فأصبح هنا امتزاج بين الشيعة والسنة أو بين الشيعة والمعتزلة كما أن جهاد أهل السنة من اشاعرة وغيرها قد آتي ثماره حتى بين بلاد فلا فأصبحنا نرى بلادا يغلب عليها التشيع وأخرى يغلب عليها مذهب أهل السنة كما كان الحال في بلاد الري ويشهد بهذا أيضا تلك المناظرات التي دارت بين الفخر الرازي وبين من لقيهم من أهل هذه البلاد ولا عجب من أننا نرى أن أكبر امامين لأهل السنة وهما أبا حنيفة والشافعي قد تخرجا من البيت العلوى .

ومن هذا نرى أن الأصول الشيعية قد اتحدت مع الأصول الاعتزالية والسنية فلا عجب أن تظهر اثر هذه الأصول عند الراغب فقد أرجعه المؤرخون بين الاعتزال والسنة وأول من وضع أيدينا على هذا هو السيوطي اذ يقول (١) (وقد كان ظني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد

---

١ - بغية الوعاة/السيوطي ص ٣٩٦

السلام ما نصه ذكر الامام فخر الدين الرازي في أساس التقديس في الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي قال وهي فائدة حسنة فان كثيرا من الناس يظنون أنه معتزلي) . والعجيب أن السيوطي وقف على كتب الراغب كما أقر وكان ظنه أنه معتزلي

وقد تابع السيوطي في هذا جميع المؤرخين الذين أرخوا للراغب كحاجي خليفة وطاش كبر زادة وغيرهم ،فهو لديهم امام من أئمة السنة ويبدو أن منزلته كانت كبيرة لديهم لدرجة أنهم قرنوه بالغزالي والذي قيل بأنه كان يستصحب كتاب الزريعة معه لنفاسته مما حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا هذا الكتاب اليه .

والواقع أن ما حدا بالمؤرخين أن يضعوه في نسق أهل السنة هو أن الراغب لم يسلك مسلك غلاة الشيعة أو بعض فرقتها فلم يكفر الخلفاء الثلاثة بل وضع عليا رابعهم (١) ولم يعاد معاوية ولم يشطح في تفسيره أو تأويله تلك الشطحات التي انفردت بها الفرق الشيعية بل كان يميل دائما الى الواقع وما يعطيه له النص ظاهرا وتأويلا وعلى هذا فانه يكون قد سلك مسلك أهل السنة وعلى هذا أيضا عد من المعتزلة وذلك لبعض الآراء التي وردت في معرض كتاباته ومنها كلامه عن العقل (٢) ونظرته اليه فالعقل لديه هو الجوهر الأول والمعول الأول لفهم الأشياء وطبيعتها وكذلك هو المحك الأول لفهم الوجود ومعرفة الخالق وان الانسان استحق خلافة الله تعالى به وهو لديه نوعان : غريزي وهو القوة المتهيأة لقبول العلم ،ومستفاد وهو الذي تتقوى به تلك القوة وهو اما بلا اختيار فلا يعرف كيف ومن أين وباختيار منه كذلك هو الذي يميز بين الانسان والحيوان وعلى هذا فالعقل لديه ملازم للشرع بل هما صنوان متلازمان لا ينفكان عن بعضهما وعلى هذا أرجع معرفة الله تعالى الى العقل وفي هذا يقول في الباب الثامن " ثروة العقل من معرفة الله الضرورية وغاية ما يبلغه الانسان "(من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته) .

---

١ - المحاضرات/الراغب ص ٢١٢ جـ ٢

٢ - الذريعة الى مكارم الشريعة/الراغب ص ٦٦

كذلك عده المؤرخون من المعتزلة وذلك راجع الى منهجه في الدراسات التي قام بها حول الانسان وفيها يقول (١) (الانسان لما كان على هيئة العالم أوجد فيه كل ما أوجد في العالم وكما أن في العالم أشياء لا يتأتى اصلاحها وتهذيبها وكان مع ذلك عما أمر به وتقصير عما كلف) . كذلك سار الراغب على منهجهم في نفي الصفات عن الله وهو أحد الاصول المعتزلية الهامة وان لم ينفرد لها بابا خاصا في كتاباته ولكنه جعلها في مخترق كلامه .

ويرى الراغب أيضا أن اللفظ ودلالته هو أساس الاختلاف الواقع بين الناس (٢) (السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان المعنى واللفظ أما ما كان من جهة المعنى فاما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة أو جهة الآلة التي تستعمل في النظر . . . . أما ما كان من جهة اللفظ فاما أن يكون ذلك واقعا من جهة مفردات اللفظ أو من جهة مركباته فان كان من مركبات اللفظ فاما أن يكون من حيث أن اللفظ مشترك بين المعنيين كالعين واليد ونحوهما أو يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام ثم مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقرر صورة ذلك الشئ في نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي . . . . ومن أجل ما وقع في الألفاظ من الشبه قالت الحكماء يجب أن يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ في الحقيقة لا يدل على المعنى الا بواسطة صورة ذلك اللفظ في القلب ومتى لم يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم المعنى من اللفظ البتة) .

وهو في هذا يوافق آراء المعتزلة الذين لا يأخذون بظواهر اللفظ .

---

١ - تفصيل النشأتين / الراغب ص ١٠٤

٢ - الذريعة الى مكارم الشريعة / الراغب ص ٩٤

ولكن رغم وضوح اعتزاليته في هذا فاننا لا نستطيع أن نضعه في نطاق المعتزلة واعتقد أن هذا انما هو مجرد توافق في الآراء وليس اتباعا لهم أو اعتناقا لمذهبهم فقد يأبى في جميع مؤلفاته أن يزج بنفسه في فرقة من الفرق . وأرى أن حدوث هذا التوافق انما كانت بتأثره بالثقافة اليونانية الواضحة في كتاباته من ميله للتحديد والتقسيم وارجاع كل شئ الى العقل الذى هو في الثقافة اليونانية الجوهر الأول ويدل على هذا استشهاده بأحاديث العقل الصادرة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والتى أرجعها بعض الباحثين (١) الى الأصول الأفلاطونية المحدثة ونفوا صدورها عن الرسول الكريم ومنها الحديث المشهور (٢) (أول ما خلق الله تعالى العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب) وفى هذا يرى الدكتور النشار أن هذا الحديث الذى اعتبره قدسيا انما كان غنوصيون اسلاميون هم الذين انطقوا النبى اياه بلسان أفلاطون غير أن علماء الحديث وفى مقدمتهم تقى الدين بن تيمية أثبتوا وضعه وصلته بالفلسفة اليونانية وهاجموه هجوما عنيفا . كذلك استشهاده لآراء أرسطو فى كتابه " المحاضرات " وأيضا آراءه عن العناصر التى وجد منها الانسان يظهر فيها أثر الفلسفة اليونانية وهو لا يخفى هذه الآثار فإننا نراه كثيرا ما يستشهد بآراء حكماء اليونان مما مكننا أن نضع أيدينا على مصادر ثقافته ونوعيتها . وأول ما يلاحظ لنا فى هذا أنه تثقف ثقافة شرقية وأعنى بها هنا تلك الثقافة الفارسية الممزوجة بالثقافة اليونانية وبالأخص تلك اليونانية المحدثة فى العالم الاسلامى وهذا أمر طبيعى ففى تلك الحقبة كانت المعارك الأجنبية قد ترجمت وأهمها نشاط المعتزلة فى ترجمة الثقافة اليونانية وعناية الخليفة المأمون بها - نرى هذا واضحا فى جميع كتاباته فى مجال دراسته عن الانسان

---

١ - الذريعة/الراغب ص ٥٣
٢ - نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام، جـ ١ د. على سامى النشار ص ١٩٣

في كتابه تفصيل النشأتين والذريعة الى مكارم الشريعة وفيهما يقوم بدراسة الانسان بتركيبه وكيفية وجوده والنوازع الخيرة والشريرة التي توجد فيه وكيف يسمو بنفسه ويتبرأ من الأعمال الذميمة ليتطهر لكي يستحق خلافة الله على الأرض وكيف أن الله أعطاه العقل الذي هو جوهر الوجود بدون عوارض سابقة عليه فخلقه على صورة العالم أي أن الانسان مكتفي بنفسه ووجوده وجود مفارق عابرة يصنع عملا لمرحلة لاحقة فعلية بالتطهر وعبادة الخالق وهو في هذا يمزج تلك النظريات اليونانية القديمة بالصبغة الاسلامية يلتمسها في القرآن والحديث الشريف مثل قوله (١) (ويحتاج الرأي الى أربعة أشياء اثنان من جهة الزمان التقديم والتأخير أحدهما أن يبعد النظر فيما يرتبه لقوله عليه الصلاة والسلام تفكروا في لا اله الا الله ولا تفكروا في الله قال تعالى "أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض" وقال تعالى "يبين لكم الآيات لعلكم تتفكرون") وقوله في كتاب "تفصيل النشأتين" في الباب العاشر (٢) (المقصود من العالم وايجاده شيئا بعد شيء هو أن يوجد الانسان فالغرض في الاركان أن يحصل منها النبات ومن النبات أن تحصل الحيوانات ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ومن الأجسام البشرية أن تحصل منها الأرواح الناطقة ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في أرضه فتتوصل بايقاد أحقها الى النعيم الأبدي كما دل الله تعالى عليه بقوله "اني جاعل في الارض خليفة" وجعل تعالى الانسان سلالة العالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى "ولقد كرمنا بني آدم وحملناه في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا") .

أما ما يدل على عدم اعتناقه اعتناقا كاملا لمذهب المعتزلة فهو ما جاء في كتاب الشريعة في باب الايمان والاسلام والتقى والبر (٣) (والشريعة واردة أن يطلق اسم الايمان على من

١ - الذريعة/الراغب ص ٦٤

٢ - ص ٣٨

٣ - ص ٧٢

يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قائله ولا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافى الامام بخلاف ما ادعته المعتزلة بأنه لا يصح اطلاق المؤمن على الانسان ما لم يختبر فى الأصول الخمسة ويوقف منه على حقيقة ما عنده وفى هذا اقرار واضح منه على عدم متابعتهم فى أصولهم الخمسة وهو بهذا ينفى مشايعته لهم .

ويبدو أن شبهة المعتزلة التى نسب اليها الراغب قد أتت من اتجاهه اللغوى فى التفسير فهو يذهب فيه مذاهبهم خاصة فى كلامه عن العرش حيث يقول (١)

وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة الا باسم وليس كما يذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى عن ذلك لا محمولا .... وما يجرى مجراه قيل هو اشارة الى مملكته وسلطانه لا الى مقر له يتعالى عن ذلك) ومادة قدر (القدرة اذا وصف بها الانسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فصل شئ ما واذا وصف الله تعالى بها فهى نفى العجز عنه ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنا وان اطلق عليه لفظا) .
فهو يسير فى هاتين المادتين وغيرهما على منوال مفسرى المعتزلة الذين نعوا أن تكون الصفات عين الذات فنزهوا الله عنها .

ومن هذا الاتجاه اللغوى عد الراغب من المعتزلة وتنازعه معهم أهل السنة حتى أننا نرى أن مؤرخا كبيرا كالخوانسارى الذى يعد الراغب من أئمة الشيعة يرجع فيقول عنه (وكان من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته) .

اذا فالراغب لم يشايع فرقة بعينها ولم يأخذ الا ما يوافقه من الفرق المختلفة فحفظ بذلك نفسه من أن يزج بها فى مشاكلهم ولكنا كما نرى لم يسلم من هذا والغريب أن مؤرخى أهل السنة والمعتزلة الذين تنازعوه لم يشيروا بشئ من قريب أو بعيد على شيعته أو آراء مؤرخى الشيعة فيه . والواقع فاتجاهات الراغب كانت دائما كثير الدهشة لغرابتها

---

١ ـ المفردات / الراغب (مادة عرش)

فمن ناحية كما رأينا من أنه قد سالم جميع الفرق والمذاهب فلم يتعرض لهم في كتاباته الا فيما ندر، الا أننا نلاحظ في هذا أن المذهب الوحيد الذي تعرض له من قريب أو بعيد نصا أو تلميحا هو المذهب الشيعي ومن هذه الزاوية تلقفه مؤرخوا هذا المذهب وعدوه شيعيا بل من حكماء الشيعة وليس سهلا أن يختار الشيعة أحد العلماء ويعدوه منهم وذلك لما عرف عنهم من تشدد في هذا المجال حتى عدوه من أصحاب المذهب المغلق وهم بهذا يجعلوننا نميل الى الآن بأن الراغب كان يبطن وان لم يكن من الغلاة وهي ظاهرة موجودة لدى الكثير من المذاهب الشيعية حتى وقتنا الحالي مثل الدروز في لبنان مثلا كما أن هناك من تشيعوا كانوا من مذهب شبيه بمذهب الراغب الأصفهاني كالصاحب بن عباد مثلا الذي كان على مذهب الشيعة العدلية وهي احدى الفرق الشيعية التي أخذت الأمور بواقعها فوافقت على خلافة الخلفاء الراشدين وأقرتهم وكذلك خلافة الأمويين فهي ترى مبدأ الإذعان للواقع الموجود كذلك الجعفرية التي كانت تسير على مذاهب أهل السنة.

اذا فكون الراغب شيعيا ليس بغريب وان لم يستطع الكثيرون التوصل الى هذا حتى محمد كرد علي وان أقره بانه كان له قبول العامة والخاصة (١) أي أهل السنة والشيعة وهو يعول على هذا ما بلغه من أخباره وليس عن تحقيق قام به .

ان أهم سند اعتمد عليه مؤرخوا الشيعة للدلالة على شيعيته هو كتاب "المحاضرات" وخاصة الفصل الذي كتبه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقرن اسمه دائما بلفظ أمير المؤمنين رضي الله عنه هذا بالرغم من أنه كتب في هذا الفصل أيضا عن الخلفاء الثلاثة السابقين لعلي رضي الله عنه إلا أنه في كلامه عنه توسع فيه وأتى بمعظم ما يظهر أحقية علي بالرغم من وضعه رابعهم ولكنه سبق فأشار الى أن هذا الترتيب عفوي وقد اعتمد الخوانساري على هذا الكتاب في كتابه "روضات الجنات" والعاملي في

---

١ - كنوز الأجداد / محمد كرد علي ص ٢٦٨

كتابه "أعيان الشيعة" وعن الراغب يقول الخوانساري (١) (وفي بعض الكتب اختلف في تشيعه وكأنه لما يتراءى من تقويته جانب الحق في بعض مصنفاته وأنت خبير لأن مثل ذلك لو كان دليلا على أحقية الرجل لما وجد للباطل بعد مصداق - كيف ولما يوجد بحمد الله لأشد النواصب الى الآن مصنف لم يكن فيه شئ من مديح أهل البيت وشطوا من مثالب مخالفتهم بالكناية أو التصريح واذا فالمرجع في تشخيص المذهب الحق الى الموافقة لأهله في جملة الضروريات والاقتفاء لآثارهم المحمودة في أصول المذهب وفروعه غير نعم في كثرة رواياته عن أهل البيت المعصومين وتعبيره عن سيدنا الامام الهمام علي بن أبي طالب دائما بأمير المؤمنين المطلق؟ أما عن نقل السيوطي في التعريف بالراغب والذي يعده فيه من أئمة المذهب السني فيقول (٢) (..... ولم يزد على ما قلناه وذلك لعدم

ثم يسترسل بعد ذلك بالنقل

من كتاب "المحاضرات" فيؤيد شيعية الراغب .

أما العاملي فيذهب مذهبا آخر غير الخوانساري فهو ينفي عن الراغب سنيته ويؤيد اعتزاليته ليخرج منها الى شيعية الراغب بما سبق أن قلناه من التحام بعض الفرق الشيعية بالمعتزلة واعتناقهم آراءها في القرن الثاني الهجري ودخول المعتزلة في أحضان الشيعة في القرن الرابع والخامس الهجري فيقول : (أقول يؤيد تشيعه قول من قال أنه معتزلي فانهم كثيرا ما يخلطون بين الشيعي والمعتزلي بالتوافق في بعض الاصول) .

والواقع فان ما يدل على شيعية الراغب أشياء كثيرة متفرقة في كتبه نخرج منها بالآتي :

١ - قرنه دائما اسم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بلقب أمير المؤمنين رضي الله عنه أو كرم الله وجهه وهو ما لم يفعله في الكلام عن باقي الخلفاء الذين تارة يذكرهم بالاسم منفردا أو قليلا يقرنهم برضي الله عنهم ولم يقل عنهم أبدا أمراء المؤمنين .

---

١ - روضات الجنات/الخوانساري ص ٢٤٩

٢ - نفس المصدر

٢ - قرنه اسم علي في بعض الأحوال بلفظ عليه السلام وهو ما لا يفعله الا شيعي .

٣ -

٤ - الرواية عن أئمة الشيعة أمثال الحسن وزيد بن علي وجعفر وزين العابدين رضي الله عنهم جميعا .

٥ - أخذه باعتقادات وآراء الشيعة في كثير من الأحيان كما يظهر في كلامه عن كون العقل والرسل هاديين الخلق الى الحق في كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة (١) (لله عز وجل رسولان الى خلائقه أحدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول ولا سبيل لأحد للانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن) ويشتم من هذا ايمانه بنظرية الامام المستقر والامام المستودع عند الشيعة وكذلك الامام الظاهر والباطن كما ذهب أيضا في كلامه عن العلم من أنه ظاهر وسرى . كذلك ما يدل على أنه كان من الشيعة العدلية تلك الحكاية التي أوردها في كتابه الشريعة عند ذكر من يصلح لوعظ العامة (٢) و (وقيل لسلمى بن كهيل : ما لعلي رضي الله تعالى عنه رفضته العامة وله في كل خير شئ قاطع قال لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره) . كذلك اهداء كتابه المحاضرات فانه يهديه لشخص يطلق عليه لفظ سيدنا وهو لفظ لا يستخدمه الا الشيعة كذلك كتابه تفصيل النشأتين فانه يهديه للأستاذ الكريم وكتاب الشريعة يهديه للأخ الفاضل .

ومن هذا يتجلى لنا بوضوح أنه كان شيعيا معتدلا نشأ في بيئة شيعية فلم يكن غريبا عليه أن يتطبع بطبع أهله وان كان قد تأثر نتيجة لثقافته بما جعله يأخذ هذا الاتجاه السالم وان يخفي هواه فلا يصرح به كذلك مجاورته لبعض المجتمعات السنية فحاز رضاء الجميع ورضوا أن يكون منهم وكفاه كما قال الخوانساري قبول العامة والخاصة .

---

١ - الذريعة/للراغب ص ٧٠

٢ - نفس المصدر ص ٨٧

الفصـــــل الخامـــس

أهم أعمالــه وإغفال رجال الطبقات لــه :

بينا في الفصل السابق أن الراغب الأصفهاني هو احدى الشخصيات التي فرضـت نفسها بأعمالها وليس بانتمائها الى احدى الفرق أو دخوله في خصومات ومعارك مع غيـره من العلماء فالرجل لم يكن صاحب سلطان أو نديم خليفة حتى يحظى بالتأريخ له . وعـن هذا يقول محمد كرد علي (لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء والعمالات أو تعلقهم بالمنادمة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتآليفهم وكم من عظيم لم يتولى قضاء ولا عملا للدولة بقي على خموله لا يكـاد يشعر به ولا يعرفه غير بعض ابناء جريدتهم على ما يظهر الراغب الأصفهاني) (١)

نوافق محمد كرد علي في هذا التخريج لاغفال رجال الطبقات للراغب فان هذا التخريـج ليس بالسبب الكافي فكما بينا في الفصل السابق أن هناك من العلماء من فرض نفسه بعلمـه وعمله وآرائه وغير حاجة الى صلة أو قضاء . فالمسألة في نظرنا ليست

يؤرخوا له الا بعد فترة طويلـــة

اذا استثنينا ما كتبه ظهير الدين البيهقي عنه (٢) حيث قام بنقل بعض آرائه دون التعـرض لشخصيته أو تفصيل حياته ثم اننا لا نجد بعد البيهقي ذكرا للراغب الا عند السيوطي وهـو كما نعلم قد عاش في القرن التاسع الهجري ولكننا ندرك من نص السيوطي أن الراغب كـان معروفا في الأوساط العلمية يدل على هذا تلك الفقرة في التعريف له (٣) وقد كان ظـني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام ما نصه ذكر الامام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس فـي الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي) بل هناك أيضا ما يدل علـى

---

١ - كنوز الأجداد / محمد كرد علي ص

٢ - تتمة صوان الحكمة/البيهقي ص ١٠٤

٣ - بغية الوعاة/السيوطي ص ٣١٦

قبول العلماء له وهو ما يحكى من أن الغزالي كان يستصحب كتاب الشريعة معه لنفاسته .

في الواقع فان الذين أهملوه هم رجال طبقات أهل السنة على العكس من رجال الطبقات في المذهب الشيعي الذين أرخوا له في كتب كثيرة ذكرها في الترجمة له عند الخوانساري والعاملي فنراهم يذكرون كتاب " تاريخ أخبار البشر " وكتاب " ريان العلماء" وكتاب " أسرار الامامة " للشيخ حسن بن علي الطبرسي ويبدو أن مؤلفي هذه الكتب قد عاشوا قبل القرن التاسع الذي ألف فيه الخوانساري كتابه " روضات الجنات " حيث اعتمد على هذه الكتب . اذا فهناك مؤرخون قد تناولوا الراغب وهم مؤرخوا الشيعة وهذا ما يجعلنا ندرك السبب الأول في اغفال رجال الطبقات له وهو أنهم قد عدوه من الشيعة فلم يتوسعوا في الترجمة له بل اكتفوا بالاشارة اليه ومن هذا ندرك أن غموض مذهب الراغب هو السبب الأول في هذا الاغفال وخاصة كما سبق أن بينا في الفصل السابق من أن المجتمع الشيعي مجتمع مغلق فلم تصل أية بيانات تعرف الراغب سوى مؤلفاته . ولعل هذا أيضا راجع الى أن مغادرته لأصفهان كانت متأخرة أو أنه كان متجولا ونزل على بغداد في آخر أيامه وفيه ألف كتابه " المفردات " حيث لم يقم باهدائه الى أي شخص كعادته في بقية كتبه السابقة كما أن اتهامه بالاعتزال قد أثر تأثيرا كبيرا على التأريخ له ففي الوقت الذي عاش فيه الراغب كان المذهب الاعتزالي يحتضر ويجري جاهدا محاولا الاندماج في المذهب الشيعي .

ولكن رغما عن هذا الاغفال فان آراء الراغب ومؤلفاته قد وجدت قبولا وهوى لدى الناس بالرغم عن هذه الانعزالية الكاملة بمؤلفها بل نراه يأخذ كثيرا من استحسان المؤرخين جمعها العاملي في كتابه " أعيان الشيعة " (فضله أشهر من أن يذكر وعلمه أعرف من أن يوصف ومؤلفاته سائرة كسير الشمس والقمر وفي رياض العلماء الشيخ الامام الراغب أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصفهاني العالم الفاضل الأديب المفسر اللغوي المتكلم الحكيم الصوفي المعروف بالراغب الأصفهاني كان من مشاهير حكماء الاسلام) . وهو في

هذا لم يخالف الحقيقة في هذه التعاريف التي قام بجمعها عنه .

فهو أديب لكتابه المحاضرات وحكيم صوفي لكتابة الشريعة ومتكلم لكتابه النشأتين ومفسر لغوي لكتابه المفردات ومقدمة التفسير . كما أننا نحب أن نشير مع هذا الى أن الراغب في هذه الميادين المختلفة كان عمدة فيها وما دمنا بصدد الحديث عن مؤلفاته فانه يحق لنا أن نتساءل هل وصلت الينا مؤلفات الراغب كاملة لم يضع منها شيء ؟

ان البحث عن هذه المؤلفات يكشف لنا للوهلة الأولى لأن ما وصل الينا لا يتعدى نصف ما ألفه الراغب والكتب المعروفة لنا والموجودة الآن بين أيدينا واتفق عليها جميع المؤرخين هي:

١ - كتاب المفردات في غريب القرآن .

٢ - كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء .

٣ - كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين .

٤ - كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة .

٥ - مقدمة التفسير .

وهذه الكتب هي التي أوردها يوسف سركيس في معجمه وهي مطبوعة طبعات قديمة تداولها ما عدا المفردات التي طبع بعد ذلك طبعات حديثة .

ولكن بجانب هذه الكتب فان هناك أيضا مجموعة أخرى يبدو أنها فقدت أو ما زالت مخطوطة في المتاحف والمكتبات منها كتاب " أفانين البلاغة " الذي وقف عليه السيوطي كذلك ما ذكره الخوانساري في روضات الجنات عن صاحب معجم الأدباء " له كتاب " تفسير القرآن " قيل وهو كبير قلت ولما أظفر عليه ثم أن له من بعد ذلك من الصنف المشهور والمؤلف الذي هو بالخبر مذكور كتاب " المفردات في تحقيق مواد لغات العرب المتعلقة بالقرآن في مجلدتين تبلغان ثلاثين ألف بيت في ظاهر ما يقابر وانما ألفه في مقابلة كتاب " تفسيره

للمركبات " كما عرفت وله كتاب سماه "تحقيق البيان في تأويل القرآن " . . . . وكتاب في الايمان والكفر بديع الطرز) وعلى هذا فاننا نجد أنفسنا أمام ثلاثة كتب جديدة للراغب غير موجودة بين أيدينا الآن الا وهي :

١ - كتاب التفسير وهو ما يطلق عليه بعض المؤرخين جامع التفسير والذى يقال عنه أن البيضاوى قد استمد منه مادته في تفسيره . (١)

٢ - كتاب تفسير المركبات ولا نعلم شيئا عن هذا الكتاب .

٣ - كتاب تحقيق البيان وقد ذكره الراغب في مقدمة كتاب الذريعة .

وبجانب تلك المؤلفات التى أوردها الخوانسارى فاننا نجد لدى بعض المؤرخين مؤلفات أخرى للراغب فطاشر كبر زاده (٢) يذكر له كتاب "أفانين البلاغة " والعاملى (٣) يذكر له كتبا أخرى هي كتاب الايمان والكفر وعنه يقول الخوانسارى (ويظهر منه أنه كان أشعرى الأصول) ، وكتاب التأويل في متشابه التنزيل وكتاب أخلاق الراغب وقد ذكره أيضا كثيرون غيره من المؤرخين كما أن اسماعيل باشا بغدادى يشير في كتابه "هدية العارفين الى كتاب اسمه المعاني الأكبر وكتاب رسالة في فوائد القرآن وهذه جاء ذكرها في مقدمة الراغب في المفردات . أما دائرة المعارف فتذكر له كتابين آخرين هما كتاب حل متشابهات القرآن وأدب الشطرنج .

وعلى هذا فاننا يمكننا أن نقسم مؤلفات الراغب الى قسمين قسم مفقود أشار اليه المؤرخون ويشمل الكتب الآتيـة :

١ - كتاب التفسير أو جامع التفاسير .

٢ - كتاب حل متشابهات القرآن .

٣ - كتاب الرسالة المنبهة على فوائد القرآن .

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية (مادة راغب)

٢ - مفتاح السعادة/طاشر كبر زاده ص ٢٢٦

٣ - أعيان الشيعة/العاملى ص ٢٢٠

٤ - كتاب درة التأويل في متشابه التنزيل .

٥ - كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن .

٦ - كتاب أفانين البلاغة .

٧ - كتاب المعاني الأكبر .

٨ - كتاب أخلاق الراغب .

٩ - كتاب أدب الشطرنج .

١٠ - كتاب حل متشابهات القرآن .

١١ - كتاب الايمان والكفر .

١٢ - كتاب الدرة (١) .

١٣ - أما القسم الآخر ويشمل الكتب الموجودة بين أيدينا الآن وهي :

١ - كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين .

٢ - كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة .

٣ - مقدمة التفسير .

٤ - كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء .

٥ - كتاب المفردات في غريب القرآن .

---

١ - جاء ذكر هذا الكتاب في الكتالوج الخاص بمكتبة ماكر ماير هوف

الباب الثانى
كتاب المفردات

المدخل

الفصل الاول النسخ الخطية والمطبوعة

الفصل الثانى دوافع الراغب وراء تاليفه المفردات

الفصل الثالث منهج الراغب فى كتابه المفردات

الفصل الرابع موقف الراغب من المشكلات اللغوية والدينية ومنهجه فيهما

الفصل الخامس الراغب والفقه والتشريع

الباب الثاني

كتاب المفردات

المدخل :

بالرغم من شهرة كتاب المفردات الذى أصبح الآن لا غنى للباحثين فى مجال الدراسات اللغوية والإسلامية عنه فانى هذا الكتاب لم يحظ بعد بمن يقوم بدراسته وبيان منهجه وربما كان مرجع ذلك كما سبق أن أشرنا من قبل الى غموض شخصية مؤلفه ولكنا نرى برغم هذا أن الكتاب فى متناول الجميع يأخذون منه ولست أشك فى أن السبب فى عدم دراسة هذا الكتاب راجع الى ضعف فى المادة أو قصور فى المنهج فلم يدر هذا بخلد أحد ممن تعرضوا للدراسات الاسلامية واللغوية فاسم الكتاب ورد فى معظم المصادر التاريخية التى أرخت للعلماء كما سبق أن بينا فى الفصول السابقة ضمن تراث الاسلام العظيم فعنه يقول محمد كرد على (وقد امتاز بأن العقل يتجلى فى سطوره فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآى من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلا على ما يريدون الافاضة فيه ومن أعظم من طبقوا الحكمة أى العقل على الشرع كما امتاز فى تنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها واقتصاره فى تقريره على ما يجب أن يبقى فى الذهن ولا تعافه النفس لطوله ولغه ودورانه) .

فهو اذا من العلماء الذين امتازوا بالتخطيط لكتبهم حاملا أمانة المصلح لم يؤلف ليواجه جماعة أو يرد على شيعة انما كتب عن هوى فى نفسه ولهذا اعتبره الكثيرون من الصوفية لأنه سار فى حياته على منهج واحد كبير ضمن مناهج صغيرة مرتبطة بعضها ببعض فمجال دراسته هو الانسان فى دنياه وآخرته وكيف يعبر تلك الحياة ليصل الى النشأة الثانية الباقية الخالدة وعليه فى تلك الرحلة عبر دنيا هى فى نظر الراغب دار ممر وليست دار مقر باتباع مكارم شريعة الله التى أنزلها على عباده مفصلة ومجملة ليهديه الى الطريق السوى لهذا

فان عليه أولا وأخيرا فهم ودراسة القرآن بعيدا عن أهل الأهواء والبدع ملتزما بما أنزله الله تعالى محافظا عليه مستمسكا بالمكارم القويمة .

هذا هو منهج الراغب الذى سار عليه فى جميع مؤلفاته فى تفصيل النشأتين والذريعة والمفردات .

واذا كان مجال دراستنا هنا هو كتاب المفردات فانه لاغنى لنا عن كتبه السابقة الممهدة لكتاب المفردات . والواقع فان كتاب المفردات هو تصوير حى للغة فى القرن الخامس حيث مالت الى التعقيد الى أن جاء الراغب فوضع كتابه هذا خدمة فى المادة ببساطة ويسر فى المنهج ولهذا أشار الدكتور حسين نصار فى كلامه عن ترتيب المعاجم حيث يقول :

(أما الترتيب الألف بائى فابتدأ معقدا عند العزيزى فى القرن الرابع من جهة وبسيطا من جهة أخرى معقدا من حيث فصله بين المفتوح والمضموم والمكسور وبسيطا من حيث ادخاله الحروف الأصلية والمزيد فى اعتباره وكان من آثار هذا التعقيد أن لم يتبعه أحد من المؤلفين غير صاحبه وأن الذين اعتمدوا على كتابه غيروا هذا الترتيب الى الترتيب بحسب السور مثل الماردينى وابن الهائم ولكن هذا الترتيب ارتقى سريعا وتخلص من كل تعقيداته وقيوده وخب الى قمة الانتظام فى القرن الخامس على يد الراغب الأصفهانى) . ويقول فى فقرة أخرى (ولم يرض من جاء بعد الراغب عن الحياة معه بين القمم فعدل الرازى فى القرن السابع عن ترتيبه) .

اذا فالكتاب قمة من قمم الدراسات اللغوية والقرآنية لا يدانيه أحد ويكون العجيب حقا أن لا يلتفت أحد الى هذا الكتاب ليحققه ويقوم بدراسته كما حظى ما هو دونه من الكتب بدراسات لا تستحقها .

وعلى هذا فان دراستنا فى هذا الباب تنصب على الكتاب ذاته ومنهج الراغب فيه مبتدئين بوصف عام للكتاب ومخطوطاته ثم التعرض للأسباب التى دعته الى تأليف هذا الكتاب

ثم منهجه فيه وموقفه مع مشكلات الترادف والاشتقاق والتفسير والتأويل .

وقد كان لزاما علينا ونحن في هذا الباب أن نتعرض للغريب وكتبه ولكنا أرجأناها إلى الباب القادم الذي خصصناه للكلام عن الغريب وكتبه .

الفصـــــــل الأول

النســخ الخطيــة والمطبوعـــة :

يعتبر كتاب المفردات في غريب القرآن من أشهر كتب الراغب الأصفهاني حتى أصبـــح علما عليه فأطلق عليه اسما مختصرا هو الشائع بيننا الآن وهو " مفردات الراغب " وبالرغم مما حازت به كتبه الأخرى من اعجاب مثل كتاب " الذريعة الى مكارم الشريعة " والذى قيـل أن الغزالي كان يستصحبه معه في أسفاره الا أن شهرة كتاب المفردات قد طغت على كـــل مؤلفاته ويبدو أن سبب هذا هو كثرة استعمال هذا الكتاب لصغر حجمه وسهولة عباراتـــه وتنسيق أبوابه فالراغب لم يجار عصره في عمل الموسوعات وكتابة المجلدات بل جاءت كل كتبه صغيرة الحجم قليلة المادة بالنسبة لعصره ما عدا كتاب المحاضرات وهو كتاب في الأدب ضمنه الحكايات والنوادر والأحاديث ولكن برغم صغر حجم كتبه وقلة مادته فان هذه القلة كافيـــة لأن يغرف منها الباحثون وهذا راجع بلاشك الى دسامة مادته وليس الى غزارتها أى أن مادة الراغب تعطى المقصود منه مباشرة بغير عوج ولا يزال هو السبب في التهافت على استعمال كتاب المفردات والذى يدلنا على كثرة تداوله هو المخطوطات الكثيرة والمطبوعـات العديدة الموجودة له فاذا ما حاولنا استقصاء مخطوطات هذا الكتاب لوجدنا أن هنـــاك كثير منها في دار الكتب المصرية والأجنبية أوردها بروكلمان في Gesch der, Ar. Lt (ص ٢٨٩) (١) علاوة على مخطوطات أخرى كثيرة في استانبول (٢) وفى بنكيبور بالاضافة الى مخطوط آخر بمكتبة براغ .

ويبدو أنه ليس هناك شك في نسبة الكتاب للراغب فلم تطالعنا المصادر وكتب السيرة عن أى اختلاف أو شك أو تحريف فيه ولهذا أقصينا التحقيق عن نسبة الكتاب اليه جانبا مسلّمين

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية

٢ -

٣ - دائرة المعارف الاسلامية ؛ ، هـ ١٨ ، ص ١٤٨٤

لا يوجد اختلاف عليه . وعلاوة على هذه المخطوطات فيوجد بدار الكتب المصرية الآن ثلاثة مخطوطات لهذا الكتاب الأولى وتقع تحت رقم ٢١٤ لغة وهى مجلدة تجليدا فاخرا وتقع فى ٣٥٥ صفحة ومتوسط الصفحة ٢٥ سطرا مكتوبة بخط دقيق جميل ويبلغ طول الصفحة ٣٠ سم وعرضها ١٨ سم . وتقع الكتابة داخل برواز مذهب طوله ٢٠ سم وعرضه ٩ سم ،ومما يميز هذه النسخة وجود بعض الكلام خارج البرواز ليحدد موضع الكلمة الجديدة باللون الأحمر هذا علاوة على وجود أسماء السور فوق الاستشهاد بالآيات وكذلك بيان الآيات المنسوخة . ويبدو أن هذه النسخة قد صححت بعد كتابتها حيث يلاحظ فى جوانب البرواز وجود تصويبات كما فى مادة (برك)حيث جاء فيها (ما يفيض علينا من نعمة بواسطة (فقد كتب على الهامش بوساطة)كما يوجد أسفل كل برواز الكلمة التى ستبدأ بها الصفحة التالية .

ويبدو أن هذا المخطوط قد كتب فى وقت متأخر لنظافته ودقة خطه وهو من كتبخانة مطبعة بولاق أضيفت اليها فى ٦ يناير سنة ١٨٩٥ م الا أن هذا المخطوط لم يوضح به أسماء ناسخيه ومتى ابتدأفى نسخه ومتى تم الانتهاء منه . وهذه النسخة مطابقة للطبعات الحديثة للكتاب وليس بها أى اختلاف . والنسخة الثانية والثالثة تقع تحت رقمى ١١٩ ،١٢٠ وهما نسختان متشابهتان لا فرق بينهما وتقع كل نسخة منها فى ٣٠٠ ورقة وتتكون الورقة من ٢٣ سطرا ومتوسط السطر كلمات الا أن هاتين النسختين تمتازان عن النسخة السابقة بأنه يوجد على الدلادة تعريف بالراغب فقد كتب عليهما نقلا عن تعريف حاجى خليفة فى كشف الظنون" (هذا كتاب مفردات ألفاظ القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى سنة نيف وخمسمائة رحمه الله) .

وسماه السيوطى فى طبقات النحاة المفضل بن محمد قال : كان أوائل المائة الخامسة ونقل عن خط الزركشى ما نصه (ذكر الامام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن الراغب من أئمة أهل السنة وقرنه بحجة الاسلام الغزالى رحمهما الله تعالى آمين) .

كذا في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للمولى كاتب جلبي رحمه الله) .

وتمتاز هاتان النسختان أيضا بوجود اسم الآية فوق الاستشهاد كما أنه عند ابتداء كل مادة توجد في الهامش كلمة (مطلب) .

وخلافا للمخطوط السابق فقد كتب في هاتين النسختين تاريخ نسخهما واسم الناسخ (تم بعون الملك الوهاب على يد أبوالعباد سليمان حسين منور الله الحموى وذلك نهار الثلاثاء يوم ١٧ خلت من ذى الحجة سنة ١٠٩١ وصلى على سيدنا محمد)ويبدو أن هاتين النسختين أحدث من النسخة السابقة لوجود تعريف حاجي خليفة وكذلك لوجود تاريخ الانتهاء من النسخ . أما عن نسخ الكتاب المطبوعة فهي عديدة أهمها :

١ - طبعة المطبعة الميمنية ١٣٢٤ هـ وهذه الطبعة رغم حداثتها الا أنها غير منظمة ولم تخرج بالمظهر اللائق لمعجم قرآني فليس هناك فواصل بين المواد وبعضها بل يبدو أن ناشر هذه الطبعة لم يبذل أي جهد في اخراجها مما يسبب اجهادا للباحثين في البحث عن المواد .

٢ - طبع على هامش كتاب النهاية في غريب الحديث سنة ١٣٢٠ هـ .

٣ - طبعة المصطفوى بطهران وتوجد هذه الطبعة بدار الكتب تحت رقمى ٢٦٩٧٨ ، ٢٦٩٧٩ .

٤ - طبعة الحلبى سنة ١٩٦١ بتحقيق محمد سيد كيلاني وهى أحسن الطبعات الموجودة الآن بين أيدينا فهى منظمة ومبوبة وقد اعتمد سيد الكيلاني بتحقيق الكتاب على خمس نسخ هم : نسخة المطبعة الميمنية والتى بهامش كتاب النهاية في غريب الحديث وعلى المخطوطتى رقمى ١١٩ و ١٢٠ م وذكر مخطوطة أخرى برقم ١٠١٩ هـ وقد قمنا بالبحث عنها بدار الكتب وفى سجلات المخطوطات بمكاتب العربية فلم نعثر لها على أثر وعلى هذا يكون سيد الكيلاني لم يرجع الى المخطوط رقم ١٦١٤ لغة أو الى طبعة طهران على أن المآخذ التى تؤخذ على هذه الطبعة أنها لم تول العناية الكافية من المحقق فقد كان الأولى به

أن ينبهنا الى الفرق بين النسخ بعضها وبعض وان كان هذا الاختلاف بسيطا وهو بعض التصحيفات الا ان الامانة كانت تفرض عليه أن يقوم بها . كذلك تعتبر هذه الطبعة ناقصة من ناحية التبويب والفهرسة والمراجع فلم يبين بها أسماء الصور المستشهد بها رغم وضوحها في كل المخطوطات كذلك فهرست الأعلام التي جاء ذكرها في الكتاب بدلا من التحقيق البسيط الذي جاء به في آخر الكتاب تحت عنوان " وفيما يلي بعض التحقيقات والتعليقات وهي تحقيقات وتعليقات بسيطة

الفصل الثاني

دوافع الراغب وراء تأليفه المفردات :

بدأت حياة المجتمع العربي في صورة منظمة عندما ظهر الاسلام يحمل معه أصول الاعتقاد المحررة من الشوائب التي خالطتها على مدى العصور السابقة - كذلك جاء الاسلام بأصول التشريع العملي المنظم لسير الحياة العملية على الأرض ومن هنا كان النص القرآني كاملا كلا الأمرين ومن هنا أيضا تصدى العلماء لدراسة النص باذلين جهدهم في استنباط أصول العقيدة منه رغم أن كثيرا من الآيات التي عرضت لهذه العقيدة جاءت مجملة . وقد أدى هذا الاجمال الى اختلاف الآراء في تفسيرها وتأويلها وقد تحرج المسلمون أول الأمر من التصدى لهذه الآيات الا ما وردت به السنة المحددة معانيها أو مفصلة مجملة أو مبينة مبهمة .

ويبدو أن الذى شغل المجتمع الاسلامي أول الأمر عن تفصيل القول في الاعتقاد عدة أمور أهمها أن العقيدة الاسلامية والتي جاء بها القرآن لم تكن تختلف في جملتها وتفصيلها عن دعوة الكتب الدينية السابقة والتي لم يصبها تحريف أو تغيير وهي تتلخص في أن هناك اله واحد لا شريك له كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في سورة (قل هو الله أحد) ومنها أيضا أن القوم كانوا مشغولين في تفصيل القول في الحلال والحرام الذين هما أساس التشريع الاسلامي والذين عبر عنهما الأصوليون (افعل ولا تفعل) .

وقد أدى ذلك الى اتساع القول في الفقه الاسلامي أو في التشريع الاسلامي والى أن ظاهرة التأويل التي كانت معمولا بها منذ عصر الصحابة كما أشار الى ذلك الآمدى في أصول الأحكام حقا أن المسلمين كانوا لا يشرعون الا لما يصادفهم من الأحداث والوقائع فلما تطورت حياة المجتمع الاسلامي نتيجة اتصاله بثقافات وحضارات جديدة أهمها الحضارة

اليونانية بما ترجم من آثارها الى العربية وما شاعت دراسته فى المدارس المنبثة بنواح متعددة بالعالم الاسلامى كمدرسة جنديسابور وحران ثم ما كان من آثار هذه الحضارن بين الأمم التى فتحها المسلمون والتى كان قد فتحها اليونان أيام الاسكندر فشاعت فيها دراسة الفكر اليونانى كبلاد فارس ثم بلاد الشام فلما تطورت حياة هذا المجتمع بدأ المسلمون يفصلون القول فى الاعتقاد على هدى من وجوده فى الفكر اليونانى المترجم والذى تعصبت له بيئات اسلامية أهمها البصرة وكان يمثل هذا الفكر فيها المعتزلة والتسمية وان كانت متأخرة الا أن لها دلالتها على هذا الاتجاه نحو الفكر اليونانى منذ أن ترجم للعربية ولا نزاع فى أن هذه العقيدة قد عبر عنها بلغة وأن هذه اللغة محتملة لجملة معانى يحمل فى تحديدها ما يصيبه المتصدى لها من ثقافة وفكر - فاذا انضم على هذا أن المسلمين اختلفوا على أنفسهم فى أمر الخلافة وأن هذا الاختلاف اعتمد أيضا على نصوص صدرت عن الرسول أو عن عمل صدر منه بأن قدم بعض الصحابة فى الصلاة أو استخلفه فى أمر من أمور الدين أو الدنيا حين اشتد به المرض عليه الصلاة والسلام أو عندما كان على سفر وقد صحبه الامام على رضى الله عنه فى حادثة غدير خم .

هؤلاء الذين انقسموا على الخلافة لم يكن انقسامهم عليها مرجعه الى عصبية أو تشدد لا يعتمد على نص أو فعل ولكنهم كانوا يذهبون فى تأويل هذه الأقوال أو الأفعال مذاهب شتى فلما استقر الأمر لأبى بكر ثم من بعده لعمر ثم آل الى عثمان كان ذلك مقدمة لما يسميه المؤرخون بالفتنة الكبرى وهى التى اشترك فيها على رضى الله عنه وهو ممثل لأهل العراق ثم معاوية وهو ممثل لأهل الشام وانتهى الأمر بالتحكيم الذى وافق عليه على رضى الله عنه وكان ذلك بداية ظهور فرقة الخوارج ثم ظهور الشيعة والفرق بينهما أن الخوارج خرجوا على على رضى الله عنه حين قبل التحكيم وأن الشيعة ظلوا موالين له وينسب الى على قولته المشهورة حين قال الخوارج " لا حكم الا لله " هذه الكلمة " قولة حق أريد بها باطل "

وكان ذلك من على كرم الله وجهه ايذانا بأن الكلام سواء أكان قرآنا أم سنة يمكن أن يفسر أو تؤول باحتمالات متعددة ومقاصد مختلفة وأنه لا سبيل لترجيح مقصد على آخر أو معنى على سواء الا بأشياء أهمها : تحقيق معاني الألفاظ ثم تحديد الظروف والملابسات التى صاحبت النص أو الفعل ومن هنا أيضا عنى المسلمون بتفسيرهم للنص القرآني لأسباب النزول وان كان الأصوليون آخر الأمر قد قرروا قاعدة مؤداها أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والقصد من ذلك أن يخلقوا آيات الأحكام من ربطها بأسبابها حتى تكون عامة لكل حادثة يمكن تطبيقها عليه .

وانقسم المسلمون الى شيعة وخوارج وأطلق على بقية المسلمين أهل السنة والجماعة ويبدو أن فكرة أهل السنة لم تطلق الا فى العصور المتأخرة وانما كان يطلق عليهم اسم العامة ذلك أن المسلمين جميعا على اختلاف فرقهم يعتمدون على السنة ويمكنون لها في الاعتقاد والعمل التشريعي لها .

وكان الفرق بين الفرق أن الشيعة لا يروون الا عن أئمتهم وأن الخوارج لا يروون الا عن الصحابة قبل الفتنة أما بعدها وهم ليسوا أهلا للرواية أما الجماعة أو أهل السنة كما أطلق عليهم فانهم كانوا يروون عن عامة الصحابة لا فرق عندهم بين صحابى وآخر ومن ضمنهم من تشيع لعلى من غير أن يجرحوه وانما كانوا يكتفون بالاشارة الى تشيعه والدليل على هذا أن ابا حنيفة قد أخذ عن جعفر الصادق وأن الشافعي روى عن كثير من الشيعة وقد استوطن الشيعة بلاد فارس والعراق واستقر بها الأئمة منهم وخاصة فى النجف وكربلاء وشاع التشيع فيهم وبالرغم من أن التشيع نشأ في هذه الأقطار فانها هى التى حملت لواء العلم الاسلامي ومكنت له - فجلة المحدثين من أصحاب المسانيد والصحاح كانوا فرسا وان لم يتشيعوا فمنهم البخارى والترمذى والنسائى .

ومعنى هذا أن هذه البيئة قد شهدت صراعا قويا بين الشيعة المتعصبين وبين العامة

المسلمين الذين كانوا يقطنون هذه البيئة وكان عجيبا أن تكون هناك بلد يغلب عليهـــــا التشيع وأخرى يغلب عليها التسنن (١) بل أن هذه البيئات شهدت صراعا قويا بيـــــن المذاهب الفقهية نفسها ويحدثنا المؤرخون أن بلاد الرى كانت الخصومة بين أهلها قويــة على مذاهب أهل الرأى وأهل السنة وقد أشار الى ذلك ياقوت فى معجم البلدان عنـــد كلامه عن بلاد الرى كما أن المناظرات التى دارت بين الفخر الرازى وبين من لقيهم ـــن أهل هذه البلاد تشهد بهذا الصراع وتؤكده .

[illegible] فكرة الإمامة عندهم فقد رتبوا أئمتهم كل فرقــة وفقا لعقيدتها ،ولكل امام زمانه ومكانه وعلمه ورأيه وقد أشار الى ذلك بتفصيل كبير النوبختى فى فرق الشيعة وهو شاهد من أهلهم كما فصل القول فيهم أيضا الشهرستانى فى الملـــل والنحل كما أشار البغدادى فى الفرق بين الفرق الى الفروق الدقيقة بينهم وكذلك باقـــى الفرق الأخرى ونحن هنا لم نفصل القول فى هذه الفرق ونشأتها وظروفها وانما الذى يعنينا هنا أن نشير الى عملها فى تكوين العقلية التى لقى بها أصحابها النصوص الدينيـــــة ففسروها وأولوها .

استقرت المذاهب الفقهية وكان للشيعة مذاهبهم المتعددة منها ما هو قريب من أهـل السنة كالمذهب الزيدى ومنها ما يبعد . كذلك اختلف أهل السنة فالأشعرية غير الماتريدية وكلاهما غير المعتزلة ـ وقد عم المذهب الأشعرى معظم أنحاء العالم الاسلامى وشاعـــت الماتريدية فى بعض بلاد ما وراء النهر وتركيا والذى مكن للمذهب الأشعرى أنه هاجــــم الاعتزال فوقف منه موقفا متشددا أو بعبارة أدق وقف من هذه المذاهب كلها موقفا وسطـــا وقد أشار الى هذا أستاذنا المرحوم أمين الخولى فى كتابه "المجددون فى الاسلام" .

---

١ ـ معجم البلدان / ياقـــوت .

ثم تلا عصر الزمخشري (القرن الخامس الهجري) وهو قرن يتميز بخصائص أهمهـــا

ظهور نظرية النظام التي اعتمد عليها المتناولون للنصوص والتي لخصها وفصلها عبد القاهـر الجرجاني كما ظهر في هذا العصر أيضا الدعوة الى استحياء التراث القديم بين القـراءات الشاذة للاعتماد عليها في توسيع آفاق النصوص الدينية حتى تشمل ما يجد في الحياة مـن أحداث وخصوصا في الفقه الاسلامي بالاضافة الى ظهور كتب الاعجاز القرآني وأهمها كتـاب الباقلاني الذى ناضل وسفه آراء المعطلين لبعث الرسل .

وفي هذا المعترك من النزاع بين هذه الفرق ظهر الراغب الأصبهاني الذى أدرك بوعي عميق أن الدوافع وراء وضع الكتب كانت وما زالت مرتبطة أشد الارتباط بناحيتين :

١ - الناحية العقائديـــة .

٢ - الناحية السياســـية .

ورأى الراغب هذا واضحا في التاريخ الاسلامي فالناحية العقائدية توضحها الفرق الاسلامية من سنة ومعتزلة وشيعة وجبرية وقدرية بما فيها من تأثيرات مسيحية ومجوسيـــة ويهودية وهندية والسياسية ويمثلها الواقع السياسي مثلا الدولة العربية في احتضانهـــا تلك الفرق العقائدية كاحتضان الدولة الأموية لمذهب الجبرية و القدرية والارجائية واستيلاء الشيعة الفاطمية على المغرب العربي ثم مصر .

كذلك لاحظ الراغب أن هناك مرحلتان انتهت احداهما بينما بدأت الأخرى بالنسبـــة للدراسات القرآنية ورأى أيضا أن الدراسات القرآنية الأولى التي بدأت مع الكتاب قد وصلت الى نهايتها في ذلك الوقت وهي كتب التفاسير والنحو التي وضعت في خدمة الكتاب الكريم فهذه الدراسات ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنص ولم تحد عنه سواء أكان باللفظ أو المعنى .

أما المرحلة التي بدأت فهي مرحلة جديدة في الدراسات القرآنية تعتمد اعتمادا كبيرا على النظرة الجمالية للقرآن تبحث فيه بجانب كونه كتاب دين على أنه كتاب أدب وبلاغـــة .

وكانت هذه الدراسة الجديدة محل نظر لدى الراغب فالكتاب الكريم عنده كتاب تكليف وعمل وأى تخريج فيه يجب الالتزام به وعلى هذا فلم يشايع هذا الاتجاه فقد كانت نظرته للكتاب نظرة دينية صرفة لا يحتمل أى تخريج لم يأت به أو ينص عليه ويقرر هذا فى مقدمة كتاب المفردات (جعل كتابه المنزل عليه متضمنا غرة كتبه التى أولاها أوائل الأمم كما نبه عليه بقوله تعالى "يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة " وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحكم متضمنا للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب عن احصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه) . هذه الحقيقة التى آمن بها الراغب هى التى جعلته يقف هذا الموقف - موقف الملتزم بما جاء فى الكتاب لفظا ومعنى فالتفسيرات الجديدة التى يراها للقرآن الكريم وضعت بلغة جديدة على المجتمع الاسلامى - لغة عاصرت حضارات ومجتمعات أصابت دلالتها وأضافت اليها ما لم يكن بها فكان اضطرابا شديدا - وهذا التطور الدلالى الكبير فى حياة اللغة أدى الى تطور واضح فى مجرى حياة التشريع الاسلامى كما أدى أيضا الى تطور ولفصفن نوع آخر فى تحديد الأصول العقيدة الاسلامية وبخاصة فيما يتصل منها بالذات الالهية وأصبحت التفسيرات غير واضحة المعانى وأصبح يتجاذب أطراف الكتاب علوم وفرق شتى كل تحمل النص بما ليس فيه . فقد أصبح ينظر الى الكتاب على أنه مصدر من مصادر الفلسفة وعلة موصلة الى وحدة الوجود الالهى كذلك نظر الصوفية الى الكتاب على أنه اشارات ورموز لخاصة من الخلق والمعتزلة تقف وتنادى برفض كل ما لا يقبله العقل .

وأمام هذا التخبط والنزاع لم يكن أمام الراغب الا أن يظهر موقفه من الكتاب الكريم فكان عليه أن يرفض اخضاع كتاب للعقل البشرى بل يجب اخضاع العقل له - كذلك رفض أن يكون الكتاب مصدرا من مصادر الفلسفة أو كتاب رموز واشارات وعلى هذا فقد قام بوضع كتاب المفردات معتمدا أولا وأخيرا على القرآن وحده، كما أن لغة القرآن الكريم وضعت كأداة تعبير عن الفكر العربى الذى عاش فى الصحراء لم تؤثر فيه

حضارات غير حضارته ومن هنا فقد حدد الراغب نفسه ولم يخرج عن واقع الكتاب وظيفة ولغة كذلك المجتمع الذى نزل عليه الكتاب ـ شارحا الكتاب للكتاب آخذا منه مفسرا له فتراه يذهب فى تحديد أنواع المعلومات بأنها ثلاثة أنواع (١) (نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ ،أما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعانى وذلك ضربان أحدهما حكم ذوات الألفاظ وهو علم اللغة والثانى حكم لواحق الألفاظ وذلك شيئان شئ يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشئ يختص به النصب وهو علم العروض وعلم القوافى . وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة وعلم البلاغة وعلم الشعر . وأما المتعلق بالمعنى فضربان علمى وعملى ...) ثم يسترسل بعد ذلك فى بيان ما هو العلمى والعملى فيرى أن العلمى هو ما قصد به العلم فقط كمعرفة البارى والنبوة أما العملى لديه فهو ما يجب أن يعلم ثم يعول به فيسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة وتارة أحكام الشرع . (٢)

اذا فالمعلومة التى تتعلق بالمعنى لديه بقسميها تستوجب العلم أولا ثم العمل ثانيا وهذه المعلومة لا يصل اليها الفرد الا بعد دراسة المعلومة المتعلقة باللفظ وهى لديه تحصيل الألفاظ بوسائط المعانى اما بحكم ذاتها واما بحكم لواحقها وهو بهذا يحث على دراسة علم تحقيق الألفاظ المفردة حيث أنها أحد الأسباب الأساسية الموقعة بالشبه (٣) وهو فى هذا لا يبعد الانسان عن هذه العملية حيث هو الأساس الأول (السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان : المعنى واللفظ أما ما كان من جهة المعنى فاما ان يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الجنة أو من جهة الاله

---

١ ـ الذريعة/الراغب ص ٧٨
٢ ـ نفس المصدر ص ٧٩
٣ ـ نفس المصدر ص ٩٤

الـــــتى تستعمـــــل للتي للنطعلـفيـللنظر فان الناظر فى الشئ المعتبر فيه جـــــار مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير تام العقل كـــــان أعمى البصيرة فيجرى مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن) .

وعلى هذا فهو يعزى التخبط والخلاف الى سوء استخدام الموازين وهو يعنى بهـــــا هنا معايير العلوم .

الفصل الثالث

منهج الراغب في كتابة المفردات :

منذ أن قام الخليل بن أحمد بوضع كتابه العين وحتى الآن لم تخرج المناهج المعجمية عن ثلاث نظم هي :

١ ـ نظام العين .

٢ ـ نظام القافية (الروى)

٣ ـ نظام الترتيب العادى .

فالأول وهو نظام العين والذى انفرد الخليل بن أحمد بوضعه يتلخص في أربعة نقاط :

أ ـ ترتيب الكلمات أبجديا حسب حروفها وفقا لمخارجها الى مجموعات تبدأ بالمجموعة الحلقية وتنتهي بالمجموعة الشفوية وهذه الأبجدية هي :

ع ح هـ خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط د ت ـ ظ ذ ث ـ ر ل ن ـ ف ب م ـ و ا ى .

ب ـ ترتيب الكلمات تبعا لحروفها الأصلية فقط .

جـ ـ تبويب الكلمات وخضوعه لنظام الكمية كالآتي : الثنائي ـ الثلاثي الصحيح ـ الثلاثي المعتل اللفيف ـ الرباعي ـ الخماسي ـ المعتل .

د ـ عولجت الكلمة ومقلوباتها في موضع واحد بطريق التقلبات .

وقد سار على نهج الخليل هذا مجموعة كبيرة من علماء المعاجم أهمهم ابن دريد في الجمهرة والأزهرى في تهذيب اللغة ـ وأبى على القالى (١) في البارع والزبيدى في المختصر وابن سيدة في المحكم .

والثاني نظام القافية (الروى) وهذا الترتيب مغاير تماما لترتيب الخليل في العين فلم يسر على نظام التقلبات أو النظام الصوتي بل كان يتخذ الترتيب الأبجدى العادى أساسا ولكن على الحرف الأخير من الكلمة وعمدة هذا النظام الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وممن

---

١ ـ كان للقالى أبجدية صوتية لا تتفق مع أبجدية الخليل وتختلف عنها قليلا .

اتبعوا في هذا ابن منظور في لسان العرب والفيروزابادي في القاموس والزبيدي في تاج العروس .

والثالث نظام الترتيب العادي وهو أن ترتب الكلمات وفقا للأبجدية المعروفة مع مراعاة أصول الكلمة ، وممن سار على هذا النظام ابن فارس في المجمل والمقاييس والزمخشري في أساس البلاغة وقد اتبع الراغب الأصفهاني هذا النظام في مفرداته كما صرح في المقدمة :

(وقد استخرت الله تعالى في املاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي فنقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم معتبرا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد) . فنراه يقسم كتابه الى ثمانية وعشرين جزءا بحسب الحروف الأبجدية وسمى كل جزء من هذه الأجزاء كتابا مثل كتاب الألف كتاب الباء .... الخ . كذلك كان يفعل نفس الشيء بالنسبة للمادة فكان يرتبها وفقا لتتابع الأبجدية فاذا أخذنا مثلا باب النون نراه يرتب المادة وفقا للآتي :

نبت - نبذ - نبط - نبع - نبأ - نبي - الا أنه رغم هذا الترتيب الأبجدي نراه في بعض المواضع يخالف هذا الترتيب كما حدث في كتاب الألف فنراه يقدم مادة أسف على أثر وكذلك في كتاب الهاء يقدم مادة هرع على مادة هرت - وأيضا في مادة هلل يقدمها على مادة هل وفي كتاب النون يقدم مادة نفر على مادة نفث وفي باء الحاء جاء بمادة حبر قبل حبط .

كذلك اختلت عنده بعض الأبنية مثل الثنائي المقصور (أ ب) والمضاعف الثنائي مثال قرأ والمهموز والمعتل فنراه يقدم الثنائي المقصور في أول فصوله أيا كان الأصل الثالث كذلك قلم المضاعف الثنائي أو الثلاثي فيضمه مع المعتل دون تفرقة بين الواو والياء .

كذلك كان الراغب لا ينظر الى الزوائد في الكلمة بل كان يرجع الى مصدرها برغم أنه يضع الكلمة أولا في زوائدها مثل مادة بتك في كتاب الباء فهو يضعها قبل مادة بتر وذلك

على أن أصلها هوبت . وكذلك جاء بكلمة متآفي باب التاء بعد مادة تقوى على أنها من توكأ . وأيضا مادة ثبات التي جاء بها بعد مادة ثبط ليبرعلى أنها من ثبه .

وبخلاف هذا الاضطراب داخل باب المادة اللغوية عند الراغب وهو اضطراب لا يصيب منهجه البسيط الوافي شيئا فان منهجه يعتبر من أكمل المناهج التي وردت في معاجم الغريب . (١)

أما عن الصيغ التي استعملها فاننا نلاحظ أنه استخدم جميع الصيغ فنرى أنه استخدم الفعل الماضي ثم المضارع ثم الأمر ثم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ثم المصدر ومنه يأخذ اسم الزمان والمكان والآلة والمصدر الميمي واسم المرة واسم الهيئة . واذا كانت هذه الصيغ غير مرتبة في مواده فان مرجع هذا هو تتبعه الكلمة واستعمالاتها في القرآن كذلك كان لا يستخدم هذه الصيغ أو بعضها الا في المواد التي تحتاج الى ابانة كالصلاة والزكاة .

واذا كان المعجميين قد عنوا بالمادة اللغوية وحدها وهي اللفظة فان الراغب يرى أن الذي يحدد دلالتها ويكشف عن أبعادها المختلفة انما هو الاستعمال وهذا الاستعمال يقتضي أن يكون المتصدي لها بكثير من دروب العلوم المختلفة كالنحو والاشتقاق وغيرهما ولهذا نراه يربط النحو باللفظة واستعمالها وبخاصة بين الألفاظ التي يختلف مدلولها باختلاف عللها النحوية كما في مادة جعل (جعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه الأول : يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا ،قال الشاعر :

فقد جعلت قلوص بني سهيل ... من الأكوار مرتعها قريب

والثاني يجري مجرى وجد فيتعدى الى مفعول واحد نحو قوله عز وجل :

(وجعل الظلمات والنور - وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)

---

١ - المعجم العربي /دكتور حسين نصار ،جـ ١ ص ٤٩

والثالث في ايجاد شئ من شئ وتكوينه منه نحو (وجعل لكم من انفسكم أزواجا - وجعل لكم من الجبال أكنانا - وجعل لكم فيها سبلا) .

والرابع في تصيير الشئ على حالة دون حالة نحو (الذى جعل لكم الأرض فراشا)وقوله (جعل لكم مما خلق ظلالا - وجعل القمر فيهن نورا)وقوله تعالى : (أنا جعلناه قرآنا عربيا) .

والخامس الحكم بالشئ على الشئ حقا كان أو باطلا فأما الحق قوله تعالى (انا رادوه اليه وجاعلوه من المرسلين)وأما الباطل فنحو قوله عزوجل (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا - ويجعلون لله البنات - الذين جعلوا القرآن عضين)والجعالة خرقة ينزل بها القدر والجعل والجعالة والجعيلة ما يجعل للانسان بفعله فهو أعم من الأجرة والصواب وكلب يجعل كناية عن طلب السفات والجعل دويبة) .

والراغب ينظر الى النحو نظرة أوسع من النحويين فالأدوات عنده أوصل بالمعنى وعلى هذا فقد اهتم بها اهتماما كبيرا وخاصة تلك التى استعملها القرآن بكثرة مثل كلمة "الى "حيث يقول فيها (الى حرف يحد به النهاية من الجوانب الست . . . " والا " للاستفتاح " والا " للاستثناء " وأولاء وأولاء" في قوله تعالى ها أنتم أولاء تحبونهم)وقوله أولئك اسم مبهم موضوع للاشارة الى جمع المذكور والمؤنث ولا واحدة لهم من لفظه وقد يقصر نحو قول الأعشى :

هؤلاء ثم هؤلاء كُلاً أعطيت نوالا محذوّة بمثال .

رف مادة (ايا) يقول : (. . . واياه لفظ موضوع ليتوصل به الى ضمير المنصوب اذا انقطع عما يتصل به وذلك يستعمل اذا تقدم الضمير نحوه " اياك نعبد " أو فصل بينهما بمعطوف عليه أو بالا نحو " نرزقهم واياهم " ونحو " وقضى ربكم الا تعبدوا الا اياه " وأى كلمة موضوعة لتحقيق كلام متقدم نحو أى وربى انه لحق وأى ،وآ ،وأيا من حروف النداء" تقول أى زيد ،وأيا زيد وآزيد . وأى كلمة ينبه بها أن ما يذكر بعدها شرح وتفسير لما قبلها) .

وأيضا في حديثه عن مادة أوى حيث يعدد استعمالات حرف الألف فيقول (......

والألفات التي تدخل لمعنى على ثلاثة أنواع نوع في صدر الكلام ونوع في وسطه ونوع في آخره فالذي في صدر الكلام أضرب :

الأول : ألف الاستخبار وتفسيره بالاستخبار أولى من تفسيره بالاستفهام اذ كان ذلك يعمه وغيره نحو الانكار والتبكيت والنفي والتسوية فالاستفهام نحو قوله تعالى " أتجعل فيها من يفسد فيها " والتبكيت اما للمخاطب أو لغيره نحو " أذهبت طيباتكم - أتخذتم عند الله عهدا - الآن وقد عصيت من قبل - أفإن مات أو قتل - أفإن مت فهم الخالدون - أكان للناس عجبا - آلذكرين حرم أو الأنثيين " والتسوية نحو " سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون " وهذه الألف متى دخلت على الاثبات تجعله منفيا نحو أخرج هذا اللفظ ؟؟ ينفي الخروج فلهذا سأل عن اثباته نحو ما تقدم ، واذا دخلت على نفي تجعله اثباتا لأنه يصير معها نفيا يحصل منهما اثبات نحو " ألست بربكم - أليس الله بأحكم الحاكمين - أولم يروا أنا نأتي الأرض - أولم تأتهم بينة - أولا يرون - أولم نعمركم " والثاني ألف المخبر عن نفسه نحو أسمع وأبصر والثالث ألف الأمر قطعا كان أو وصلا نحو أنزل علينا - ابن لي عندك بيتا في الجنة " ونحوهما الرابع الألف مع لام التعريف نحو العالمين . الخامس ألف النداء نحو أزيد أي يا زيد .

والنوع الذي في الوسط ، الألف التي للتثنية والألف في بعض الجموع مثل مسلمات ونحو مساكين . والنوع الذي في آخره ألف التأنيث في حبلى وفي بيضاء . والألف الضمير في التثنية نحو اذهبا . والذي في أواخر الآيات الجارية مجرى أواخر الأبيات نحو " وتظنون بالله الظنونا - وأضلونا السبيلا " لكن هذه الألف لا تثبت معنى وانما ذلك لاصلاح اللفظ) .

فهو هنا يتقصى جميع استعمالات الألف المختلفة ويتعرض لأقوال العلماء فيما ذهبوا اليه . ومواد كثيرة غير هذا تعرض فيها للنحو ولا سيما بالنسبة للحروف المؤثرة في المعنى

كحرف الباء والسين والياء والميم ومادة أن وان واذن وهو في هذا انما يساير آراء المحدثين الذين ربطوا النحو باللغة مثل سوسير الذى يرى أنه من غير المعقول أن يفصل المعجم عن النحو ، فالنحو لديه هو الذى يبين العلاقة بواسطة الكلمات وكذلك ما نادى بـــه كارال من أنهم يجب أن يجعل للملامح النحوية نوعا من المعنى يجب أن يعالجها المعنى وهو نفس ما أوصى به المؤتمر الذى انعقد بجامعة انديانا فى نوفمبر سنة ١٩٦٠ لبحث مشاكل المعاجم والذى رأى أن المعجم لا يستغنى عن النحو وذلك أنه يعرض الصيغ فـــى صورة نحوية ونادى بأن تكون للمعاجم مقدمة موجزة فى نحو اللغة التى يعرضها . (١)

كذلك كان الراغب يتعرض للقراءات خلال استعراضه للمادة كما فى مادة أتى بمعـنى المجئ فهو يستشهد بقراءة عبد الله وكذلك بقراءة حمزة .

أما عن استشهاداته فان اعتماده أساسا كان على القرآن الكريم وبجانبه فانه استشهد بالحديث والشعر وأقوال العلماء ومذاهب الفقهاء . ومما نلاحظه فى هذا المجال هو قلة استشهاده بالحديث مما يدلنا على أنه لم يكن محدثا ولهذا نراه فى كتبه الأخرى يتساهل فى رواية الحديث والآثار ولا يشغل نفسه بنقدها أو بترجيح بعضها أو نقد أسانيدها بل نراه يوجه عنايته الى نقوله وهو فى هذه النقول لايكاد يعزى المنقول الى صاحبه الذى نقل عنه الا فى اللغة لوضوح النقل عنها . أما فى النقول عن المتكلمين أو الحكماء أو الفلاسفة فانه يكتفى بذكر عامتهم ولا يخص أحدا منهم فيقول " وذهب المتكلمون " " وذهب الفلاسفة أما حين يتجه الى اللغة فيذكر أسماء أصحابها فنراه يذكر ضمن من ذكرهم ابن عبـــاس والخليل والحبائى والزجاج وقطرب والفراء والشعبى .

ويبدو أن صفة المعتزلة التى وصم بها جاءته عن هذا الطريق حيث أن معظم هؤلاء من أئمة علماء المعتزلة . ولكنه رغم هذه النقول التى يعزيها الى أصحابها الا أنه لايدلنا على

-١

أسماء كتبهم ،وكذلك سلك نفس المسلك بالنسبة لاستشهاده بالشعر فنراه يورد في أحيان كثيرة شطرة واحدة من البيت دون الدلالة على اسم الشاعر فلم يذكر منهم سوى قليل كذكره النابغة . (١)

كذلك نراه لا يتوسع في ذكر آراء المدارس الفقهية حول الألفاظ الخاصة بالتشريعات أو الأحكام وانما يدع ذلك للمتخصصين - ذلك أن العبادات والمعاملات وهما يمثلان أهم أبواب العمل التشريعي لا يقتصر فيهما على النص القرآني وحده بل لابد من الاستعانة في تحديدهما وبيان أحكامهما من السنة قولا كانت أو فعلا أو اقرارا وذلك فيما يقدر ميدان آخر له علماؤه المعنيون به الواقفون أنفسهم عليه ومن هنا نراه لا يدخل في تفصيلات علمهم ودقائقهم فحين يتعرض لمعنى الربا يفسرها بان الربا الزيادة في المال على وجه خاص مفرقا بينه وبين الزكاة تفريقا خفيفا مسترشدا في ذلك بما يدل عليه النص القرآني في استعمال الكلمتين وكذلك في حديثه عن الصلاة .

نرى الراغب يوجز في ألفاظ العبادة والفقه بعامة ويفصل القول في آيات الاعتقاد على ما تقضي به ضرورة الآية والكشف ومرجع ذلك أن الاعتقاد يدخل العقل في تحديده والاستدلال عليه أما العبادات بلا مدخل للعقل فيها وهو بهذا فانما يحدد موقفه ازاء أشياء لا تدخل في نطاق دراسته .

واذا كان هذا هو موقف الراغب من ألفاظ الشرع والعبادة فان موقفه من الألفاظ المولدة والدخيلة واضح تمام الوضوح في تعرضه للمواد اللغوية ،فنجد أنه أمام كلمات عديدة يشير الى عجمتها دالا على أصلها مثل كلمة " دنو " حيث يقول (دنر : قال تعالى " من أن تأمنه بدينار " أصله دينار فأبدل من احدى النونين باء وقيل أصله بالفارسية دنى آر أى الشريعة جاءت به)وكذلك كلمة " رباني " في مادة " رب " على أن أصلها سرياني - وأيضا مادة " عيسى " على أنها عبرية ومواد أخرى كثيرة مثل جهنم وحلت ومسيح وغير هذا من الألفاظ التي كان

---

١ - المفردات/الراغب ص ١٢

يشير الى عجمتها وكذلك في مادة أنا على أنها كلام محدث ليس من كلام العرب .

ومما لا شك فيه أن اجادة الراغب لأكثر من لغة علاوة على ما امتاز به من حس لغوى دقيق اعانة اطنة كبيرة في ادراك الفروق الدقيقة في اللغة وتحديد دلالة اللفظة فكل لفظ لديه مختص بشيء غير الآخر وهذا هو ما سنراه في موقفه من الترادف القائم على انكاره ويظهر هذا واضحا في كلامه عن الأفعال فالأفعال لديه ضربان (١) الهى وانسانى : فالالهى هو الخلق ويشمل الابداع والتكوين أما الانسانى فهو اما نفسي أو بدني أو صناعي والفعل هنا لفظ عام - وهنا يفرق الراغب بين الفعل والعمل والصنع حيث يرى أن لفظ الفعل يقال لما كان باجادة أو غيرها بعلم أو غيره سواء أكان من انسان أو حيوان أو جماد أما الصنع فهو يكون من الانسان دون سائر الحيوان والعمل عنده فهو مقلوب عن العلم الذى هو فعل القلب والعمل فعل الجارحة وهو يبرز عن فعل القلب الذى هو العلم وينقلب عنه وأما الصنع فانه يكون من الانسان دون سائر الحيوان ويجمع الراغب هذا الكلام كله في قضية منطقية (كل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كلا فعل عملا) ويستشهد على هذه الفروق الدقيقة بفارسية هذه الألفاظ فالفعل : كار العمل : كاردار الصنع : كنثر . (٢)

ولقد كان هذا المنهج في التفريق الدقيق بين الدلالات هو الذى سار عليه في كل مؤلفاته في الذريعة وتفصيل النشأتين والمفردات كتفريقه بين العلم والعقل والمعرفة والدراية والزكاة والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخبر (٣) . وهو بهذا المنهج فانما يحدد قدرات الانسان ما له وما عليه لا يعصل الانسان عن بيئته ومجتمعه كذلك يضع في الاعتبار الحالة النفسية للانسان مشيرا الى عملها فيه وتأثيرها فالفعل الذى سبق أن تكلمنا عنه يقسمه الى قسمين : ارادى ولا ارادى وتسخيرى

---

١ - الشريعة/الراغب ص ١٦٥
٢ - الذريعة/الراغب ص ١٦٥
٣ - نفس المصدر

ولا تسخيرى وهو بهذا فانما يحدد للعلاقة هذا اللفظ بالانسان وقدرته عليه ذلك أنه يسرى (ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة الا بينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقية الهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف لينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه فى مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ويتعاطاه بانشراح صدر) (١) .

فالقرآن لديه نظام مخصوص لا هو بشعر أو نثر معجزته فى عجز الناس عن الاتيان بمثله فصاحة معنى ولفظا - فالألفاظ هى ألفاظهم والمعانى موجودة لديهم فاعجازه هو نظمه والنظم هو صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصران - وهو بهذا يكون قد سبق عبد القاهر الجرجانى فى ارساء نظرية النظم القائمة على العلاقة بين اللفظ والمعنى وكان هذا هو ما دفعه الى حصر العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى وتحديدها بخمسة نقاط هى : (٢)

١ - اتفاق اللفظ والمعنى وتسمى اللفظ المتواطئ .

٢ - اختلاف اللفظ والمعنى ويسمى اللفظ المتباين .

٣ - اتفاق فى المعنى دون اللفظ ويسمى المترادف .

٤ - اتفاق فى اللفظ واختلاف فى المعنى وهو المشترك .

٥ - اتفاق فى بعض اللفظ وبعض المعنى ويسمى المشتق.

كذلك حدد الشبهة التى تقع من هؤلاء فى الآتى :

١ - الألفاظ المشتركة .

٢ - الألفاظ المتواطئة .

٣ - الألفاظ المشتقة .

وهذا ما سنقوم بدراسته فى الفصل القادم .

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٣٠

٢ - نفس المصدر ص ٣٩٥

الفصـــل الرابـــع

موقف الراغب من المشكلات اللغوية والدينية ومنهجه فيهما :

١ - المشتـــرك اللفظـــي :

حدد الراغب نفسه في كتاب المفردات بألفاظ القرآن الكريم كما صرح في مقدمة المفردات (فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه وعليه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم . وما عداهـــا وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالاضافة اليها كالقشور والنوى بالاضافـــة الى أطايب الثمرة وكحثالة والتبن بالاضافة الى لبوب الحنطة) .

ومن هذه النظرة الى ألفاظ القرآن الكريم انفرد الراغب عن غيره من المعجميين بنظريـة تحقيق الألفاظ فهو يرى أن عملية التحقيق هذه ضرورية ولازمة لمن أراد أن يشتغل بعلـــوم القرآن وذلك أن ألفاظ الكتاب مرتبطة ارتباطا كبيرا بالشرع المنظم لحياة الأمة الاسلاميـــة والمحدد لمعاملاتها وعقيدتها وليس شرح أصول مفهوم الألفاظ لديه هو فهم القرآن الكريم فقط بل يرى أن هذه العملية تتعدي هذه الحدود فهي نافعة في كل علم وعلى هذا يقول في مقدمة مفرداته (وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلـــوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة وتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاول في بناء ما يريد أن يبنيه وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بـــل هو نافع في كل علم من علوم الشرع) ومن هذا انطلق في عملية تحقيق الألفاظ ونلاحـــظ أن منهج الراغب في هذا المجال هو تتبع دوران الكلمة في الكتاب واستعمالاتها فيه لاستقرا لاستقراء معانيها المختلفة ثم يقوم بعد ذلك بتقصي استعمالها في اللغة وذلك أنه يـــرى أن الألفاظ هي أداة الدلالة على المعاني فالأصل فيها أن تكون مختلفة وفقا لموقعهـــا وعلى هذا فهو يحدد العلاقة بين اللفظ والمعنى فيقرر أن المعاني غير متناهية أمـــا

الألفاظ فمتناهية ويوضح هذا في مقدمته فيقول (١) (والأصل في الألفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني ولكن ذلك لم يكن في الامكان اذ كانت المعاني بلا نهاية والألفاظ مع اختلاف تركيبها ذات النهاية وغير المتناهي لايحويه المتناهي فلم يكن بد من وقوع اشتراك في الألفاظ) .

اذا فالراغب يرى أنه نتيجة لهذه الصلة فلابد أن هناك تغير مطرد في دلالة اللفظ حتى يكون بينه وبين المعنى نوع من التكافؤ ومن هنا قد يحدث بين الألفاظ بعض الاشتراك الذي يؤدي الى غموض الاسلوب أو الاستعمال وكان لابد كما رأى الراغب أن يحدد اللغوي هذه العلاقة وان تعددت وجوهها حتى يكون الناظر في الاسلوب على بينة من هذا التعدد كي يستطيع أن يدرك بعض ما خفي من دلالات الألفاظ على تلك المعاني فعن تحديده لهذه العلاقة يقول (٢) (ويجب أن يعلم أن للفظ والمعنى خمس أحوال :

الأول : أن يتفقا في اللفظ والمعنى فيسمى اللفظ المتواطئ نحو الانسان اذا استعمل في زيد وعمرو .

والثاني : أن يختلفا في اللفظ والمعنى ويسمى المتباين نحو رجل وفرس .

والثالث : أن يتفقا في المعنى دون اللفظ ويسمى المترادف نحو الحسام والصمصام .

والرابع : أن يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى ويسمى المشترك والمتفق نحو العين المستعملة في الجارحة ومنبع الماء والديدبان وغير ذلك .

والخامس : أن يتفقا في بعض اللفظ وبعض المعنى ويسمى المشتق نحو ضارب وضرب .

والذي يقع في الاشتباه من هذه الخمسة : الألفاظ المشتركة والألفاظ المتواطئة هل هي علة أو خاصة والمشتقة مما اشتق كقولهم النبي والبرية منهم من قال من أنبأ وبرأ فتركت الهمزة ومنهم من قال من النبوة وهي الربوة ومن البرا وهو التراب) .

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٣٩٥
٢ - نفس المصدر

اذا فهو فى تحديده لهذه العلاقة لا يعترف بالاشتقاق الكبير للفنون التسمم الذى أخذ به ابن جنى القائم على الافتراض وتقاليب الكلمة على وجوهها المختلفة وهو ذات المنهج الذى أبتدعه الخليل فى ترتيب مواد اللغة حتى يحدد المهمل والمستعمل .

وبهذا يكون الراغب قد حدد مواطن الاختلاف والاضطراب الذى قد يقع فيه المفسر والاشتباه الذى يحدث له . فالاشتباه من جهة اللفظ قد يقع من جهة مفردات اللفظة أو مركباتها فان كان من مركبات اللفظة فهو دال على أن اللفظة مشتركة بين معنيين كالعين واليد أو أن تكون اللفظة عاما موضوعا موضع خاص أو خاصا موضوعا موضع عام أو مستعملا على سبيل المثل أو الرمز أو الاشارة أو مستعملا لشئ لم تتقرب صورة ذلك الشئ بنفس السامع ولهذا فهو يعزى كثير من الاضطراب الذى يصاحب فهم النص سواء أكان تأويلا أو تفسيرا لهذا النوع . (١)

أما من جهة التركيب فالشبه تقع لديه من جهتين :

١ - الكمية : وهى أن يكون اللفظ أكثر أو أقل مما يجب أن يكون .

٢ - الكيفية : وهى الاستعمال كالتقديم والتأخير .

والراغب فى هذا يساير الامام الشافعى فى رسالته حين تكلم عن العام الذى يراد به الخصوص والعام الذى يدخله الخصوص والفيصل فى ذلك كله هو الاستعمال مرتبطا بالفكرة المدلول عليها بالنص موصلا كل أولئك بالمجتمع المتفهم لهذا النص المتدين به أو المتشرع بما جاء فيه . وقد لحظ ذلك الشافعى حيث تحدث عن الألفاظ المتواطئة بهذه الصورة التى أشرنا اليها موازنا بين الاستعمال القرآنى وبين المأثور عن العرب من الأساليب التى تجتمع والقرآن فى هذا الصدد .

أما أوصاف اللفظ المشترك لديه فهو أن يستوى اللفظان فى ترتيب الحروف وعددها وحركتها ويختلفا فى المعنى نحو عين وكلب فأما اذا اختلف ترتيب الحروف نحو حلم وحمل

---

١ - الذريعة/الراغب ص ٩٤

أو العدد نحو القتل والفنا أو الحركة نحو قدم وقدم أو لم يختلفا في المعنى نحو الانسان فان ذلك ليس من الاسماء المشتركة .

أما عن سبب الاشتراك في اللفظ فانه يرى أنه يقع لعدة وجوه : (١)

اما أن يكون في لغتين نحو الصقر للبن اذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب والصقر للدبس في لغة أهل المدينة .

واما أن يكون أحدهما منقولا عن الآخر أو مستعارا والفرق بينهما أن المنقول هو الذي ينقله أهل صناعة ما عن المعنى المصطلح عليه أولا الى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته فيبقى بعد مشتركا بين المعنيين كلفظة الزكاة والصلاة .

وأما المستعار فهو الاسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر وهذا المعنى الآخر له اسم وضعي غير هذا الاسم المنقول والامر في هذا يعتمد على التشبيه .

ومن هنا عني الراغب في مفرداته بهذا النوع من الألفاظ لبيان وجوه الاشتراك وهل هو اشتراك يرجع الى اختلاف اللهجات أو الى التواضع والاصطلاح أو النقل عن طريق التشبيه .

وهذا كله لديه خاص باللفظة المفردة فاذا ما انتهى الأمر الى التركيب الحاصل بين جملة من الألفاظ من حيث دوران الكلمة في أماكن متعددة من الاستعمال القرآني واختلف في ذلك معناها ضيقا واتساعا فانه يتحدث هنا عن الاشتباه الحاصل في الترتيب وهو ما أخذ نفسه به في المفردات حيث يقول (. . . اما أن يكون الغموض راجعا الى جهة المعنى أو من جهة اللفظ فان كان من جهة المعنى فلا سبيل الى ازالته بتغيير العبارات أن المعاني ضربان : جلي ومشتبه [illegible] يمكن ادراكه بأدنى تأمل كقوله تعالى "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ".

وأما الغامض فعلى ثلاثة أضرب : الأول أن يكون المعنى في نفسه خفيا نحو الكلام في صفات

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٣٩٦

البارئ سبحانه ونفي التشبيه عنه والثاني أن يكون الكلام أصلا يشتمل على فروع تتشعب منـــه كالآيات الدالة على الأحكام والثالث أن يكون مثلا دائما كقولهم " في الصيف ضيعت اللبـــن" وذلك لأن ظاهره ينبئ عن شئ والمقصود غيره) .

ولذلك نرى الراغب تحديد معاني الكلمات التي استعملها القرآن في القصص يكـــاد يكتفي بالمعنى المادي فقط أي المعنى الظاهر .

٢ - مادية اللغـــــة :

كان التصور اللغوي عند المعتزلة ونظرتهم للغة على أن كلها مجاز هو المصباح الـــذي أنار الطريق أمام اللغويين العرب لكشف النقاب عن مادية اللغة وهو أمر لم يفطن اليـــه أحد قبله مما جعل الأمر عسيرا بعد ذلك على من نادوا بمادية اللغة كابن جني الذي قرر واقعا لا مندى فيه وذلك أنه حين يقرر ذلك يرى من حوله ركاما من المواد اللغوية تتصـــل بالمادة ويعبر عنها وينتقل من ذلك التعبير الى التجريد واللغات جميعها قد تنسى هـذا المادي وتعدوه الى التجريد في كثير من موادها وقد يستعمل الأمرين جميعا في أساليب مختلفة وموضوعات يرتبط كل منها بمجال خاص .

ثم أن الزمخشري حين تصدى لدراسة النص القرآني أحس أن ملاحظة هذا الاشتقاق والتدرج في حياة الألفاظ يهدي مفسر النص الى أمور خطيرة في عملية التفسير أو التأويل فكان الـــى نص على الاصل المادي للفظة وقد قاده هذا الى وضع معجمه أساس البلاغة والذي كلـــان يشير فيه الى الأصل المادي للغة .

أما الراغب الأصفهاني فقد قام بمحاولة تطبيق مادية اللغة على اللفظة الأمر الذي لـــم يفطن اليه من سبقوه فكان ازاء ذلك يرى أمرين :

١ - أن المادة اللغوية منذ أن نشأت الى ما وصلت اليه فانها تمر عبر تاريخ وعلى ذلك فلها بداية وغاية وأن ما بينهما انما مثل مرحلة التطور في حياة اللفظة وأن البداية تمثل الأصل المادي .

٢ - أما الغاية فهي النهاية التجريدية ولعل أوضح مثال يوضح لنا هذا مادة "يد" فهي عنده الجارحة ثم هي النعمة ثم هي القوة وأيضا كلمة عرش فهي تعني عنده الشيء المسقف ثم هو هودج المرأة ثم هي كرسي الملك (السلطان) ثم هي الكرسي وأيضا مادة "أرض" وفيها يقول (الأرض الجرم المقابل للسماء وجمعه أرضون ولا تجيء مجموعة في القرآن ويعبر بها عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه قال الشاعر في صفة فرس :

واحمر كالديباج أما سماؤها ∴ فريا وأما أرضها فمحول

وقوله تعالى (اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها) عبارة عن كل تكوين بعد افساد وعود بعد بدء ولذلك قال بعض المفسرين يعني به تليين القلوب بعد قساوتها ويقال أرض أريضة أي حسنة النبت وتأرض النبت تمكن على الأرض فكثرت وتأرض الجدي اذا تناول نبت الأرض والأرضة الدودة التي تقع في الخشب من الأرض يقال (أرضت الخشبة فهي مأروضة) .

وهكذا نرى الراغب يحرص على النص على هذه المادية ما وسعته الحيلة وأعانه الاستقصاء كما أن البحث عن هذه المادية أعانه على جمع المتفرق من شعاب المعنى واستقصاء وجوه استعماله اسما وفعلا ومصدرا واسم فاعل واسم مفعول كما مكن له من ملاحقة الفروق بين وجوه الاستعمال وهذا الجمع فقد تكشف له به أن هذه الفروق الدقيقة أزالت ما عسى أن يلمح من غير تأمل من وجوه تناقض بين التعبيرات القرآنية كما في مادة هدى وفيها يقول (الهداية دلالة بلطف ومنه الهدية وهوادي الوحش أي متقدماتها الهادية لغيرها وخص ما كان دلالة بهدية وما كان اعطاء بأهديت نحو أهديت الهدية وهديت الى البيت أن قيل كيف جعلت الهدايا دلالة بلطف وقد قال الله تعالى "فاهدوهم الى صراط الجحيم - ويهديه الى عذاب السعير".

قيل ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله "أبشرهم بعذاب أليم" وقول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

وهداية الله تعالى للانسان على أربعة أوجه .... والهدى والهداية فى موضع اللغة واحد لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو الى الانسان نحو " هدى للمتقين - أولئك على هدى من ربهم ... " والاهتداء يختص عما يتحراه الانسان على طريق الاختيار أما فى الأمور الدنيوية أو الأخروية قال تعالى " وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ... " ويقال ذلك لطلب الهداية نحو " واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون " ويقال المهتدى لمن يقتدى بعالم نحو " أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون " تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم وقوله " فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها " فان الاهتداء ها هنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء ومن تحريها وكذا قوله " وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " وقوله " وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى " فمعناه ثم أدام طلب الهداية ولم يفتر عن تحريه ولم يرجع الى المعصية ... والهدى مقتصر بما يهدى الى البيت ... والهداية مختصة باللطف الذى يهدى بعضنا الى بعض، قال تعالى " وانى مرسلة اليهم بهدية - بل أنتم بهديتكم تفرحون " والمهدى الطبق الذى يهدى عليه والمهداء من يكثر اهداء الهدية .... والهدى يقال فى الهدى وفى العروس هديت العروس الى زوجها وما أحسن هدية فلان وهدية أى طريقته وفلان يهادى بين اثنين اذا مشى بينهما معتمدا عليهما وتهادت المرأة اذا مشت مشى الهدى) .

وهكذا نجد الراغب يصر على البحث عن مادية اللغة ويتخذها منطلقا فى تحديد الخطوات التى صارتها اللفظة .

وذلك أن هذه المادية فى الأصل فى توقيفنا على اللفظة هل هى حقيقة أم مجاز كذلك تدلنا على مراحل تطور اللفظة منذ أن وضعت وفى هذا يتعرض الراغب الأصفهانى

لمشكلتين من أهم المشاكل اللغوية وهما المجاز والترادف .

٢ - موقف الراغب من المجـــاز :

سبق أن تكلما عن موقف الراغب من العلاقة بين اللفظ والمعنى وبينا فيها أنه يـــرى أن الألفاظ محدودة أما المعاني فغير محدودة فعلى هذا فان الألفاظ قاصرة المعاني ومن هنا ظهر التجوز في اللغة . وهذا التجوز هو عملية جماعية يقوم بها المجتمع ككل في فترة زمنية متباعدة . والحقيقة فان المجاز قد أثر في اللغة تأثيرا كبيرا خاصة فـــي ميادين الأدب كما أنه ساعدها على الاتساع والنمو والتعبير وذلك أن كثيرا من الألفـــاظ العربية الدالة على المعاني الكلية والظواهر النفسية منقولة في الأصل من الأمور الحسية (١) عن طريق المجاز ثم شاع استعمالها في معانيها الجديدة حتى أصبح اطلاقها عليها مـــن قبيل الحقيقة اللغوية .

ولا شك أن المتصدى للنص لا يدق عمله الا اذا كان واعيا بطبيعة هذا التجوز فـــي الألفاظ ذلك أن اللفظ المجاز لا يظل مجازا على طول الزمن فربما يكون حقيقة متعارفـــا عليها في بيئة من البيئات وقد اختلف العلماء ازاء المجاز اختلافا كبيرا فمنهم من أنكـــره ومنهم من رأى أنه الغالب على اللغة وقد أورد السيوطي في المزهر جملة أقوال العلمـــاء في المجاز ويهمنا منهم رأيين : رأى ابن جني الذي ذهب الى أن اللغة كلها مجـــاز ورأى الاسفرايني الذي أنكر المجاز في اللغة .

فالاسفرايني يرى أن حد المجاز عند مثبتيه أنه كل كلام تجوز به عن موضوعه الأصلي الى غير موضوعه الأصلي لنوع مقارنة بينهما في الذات أو في المعنى أما المقارنة في المعـــنى عنده كوصف الشجاعة والبلادة وأما في الذات فكتسمية المطر في السماء وتسمية الفضيلـــة غائطا والغائط : الموضوع المطمئن من الأرض كانوا يرتادونه عند قضاء الحاجة فلما كثر ذلك

١ - فقه اللغة/علي عبد الواحد ص ١٦٨

نقلوا الاسم الى الفضلة وهذا يستدعي منقولا عنه متقدما ومنقولا اليه متأخرا وليس في لغة العربي تقديم وتأخير بل كل زمان قدر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة فقد نطقت فيه بالمجاز وذلك أن الأسماء لا تدل على مدلولاتها لذاتها اذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى ولذلك يجوز اختلافها باختلاف الأمم ويجوز تغييرها أما اللغة فانها تدل بوضع واصطلاح والعرب نطقت بالحقيقة والمجاز على وجه واحد فجعل هذا حقيقة وهذا مجازا ضرب من التحكم .

وقد قام السيوطي (١) بتفنيد هذا الرأي دالا على أن الحقيقة لابد من تقديمها على المجاز فانه لا يعقل وجود المجاز الا اذا كانت الحقيقة موجودة أولا كذلك عن قوله أن العرب وضعت الحقيقة والمجاز وضعا واحدا فان السيوطي يرى أن العرب قد سمت الانسان أسدا لمشابهته الأسد في المعنى الشجاعة .

أما الرأي الآخر وهو رأي ابن جني فانه يرى أن المجاز يقع لمعان ثلاثة (٢) هي الاتساع والتوكيد والتشبيه فان عدمت الثلاثة تعينت الحقيقة وعلى هذا فان أكثر اللغة مجاز لا حقيقة ويضرب ابن جني مثلا وهو (قام زيد) فهو يعزى اليه هذا الجنس من الفعل فالجنس يطلق على الماضي والحاضر والمستقبل والكائنات من كل من وجد منه القيام والانسان لا تجتمع فيه القيام كله في وقت واحد فقام زيد عنده مجاز لا حقيقة على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير .

ومن هذين الرأيين يتضح لنا مدى اختلاف العلماء في وضع المجاز .

أما الراغب فانه يرى أن الحقيقة والمجاز ضدان اذا عرف أحدهما عرف الآخر والحقيقة لديه تستعمل في اللفظ والمعنى ولكن اذا استعملت في المعنى فان استعمالها في حقيقي ويستعمل ضدها المجاز والتسمح والتوسع فيقال هذا فعل واعتقاد وخبر فيه تجوز وتسمح وتوسع ولا فرق بين أن يكون مثل هذا الخبر بلفظ مجاز أو حقيقة والمجاز لديه يقع

---

١ - المزهر/السيوطي ج ١ ص ٣٦٥
٢ - المزهر/السيوطي ج ١ ص ٣٥٦

في المفردات(١)والجمل فالذى يقع في المفردات اما أن يكون بنقل مثل فلان عظيم الحافر أى القدم أو بزيادة نحو انظور في انظر أو نقصان نحو " رمى المنا بمتالع فابسان" أى المنازل .

ويرى الراغب أيضا أن اللفظ يحتمل الوجهين الحقيقة والمجاز مثل فلان عظيم الاقدام من حيث استعمل القدم حقيقة ومن حيث أتى بلفظ الجمع مجازا .

أما المجاز الذى يقع في الجمل فهو لا يكون الا بحذف أو زيادة والراغب في هذا لا يقصد بالمجاز في الجملة المجاز العقلي وانما يقصد المجاز بالحذف كما أنه يؤكد أنه لاضرورة لما نسميه مجازا عقليا ويظهر هذا جليا عنده حين يحدد علاقة اللفظ بالله مرة وبالانسان مرة أخرى فمن الأفعال ما يراه منسوبا الى الله تعالى منفية عن العباد (٢)أو منسوبة الى العباد منفية عن الله تعالى كقوله " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم " وقوله " وما رميت ولكن اذا رميت ولكن الله رمى " وقوله " وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك".

ومن هذه الجمل فانه لا فاعل في الحقيقة منفردا غير الله اذ يحتاج كل فاعل الى معلون والرحمن منزه عن هذا فهو الفاعل الحقيقي وما سواه فاعل على ضرب من التوسع وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين على أن الأفعال كلها بمشيئة الله وارادته . (٣)

ومن هذه الآراء ونظرته الى المجاز العقلي ترى أن الراغب لا يعترف به ولا يقيم وزنا في فهم النصوص المتعلقة بالاعتقاد والا أدى ذلك الى الخلاف والنزاع فالفعل المتعلق بالايجاد يصح أن ينسب الى سببه ومكانه وزمانه أما الايجاد المطلق فهو ينسب الله تعالى وكذلك "شاء "اذا استعملت فيه تعالى فبمعنى الشائي واذا استعملت في غيره فبمعنى الشاء وهذا المبدأ الذى يقرره الراغب ينفي وجود ما يشعر بالتناقض بين الآيات .

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٦
٢ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٨
٣ - الذريعة/الراغب ص ١٦٦

٤ - موقف الراغب من التـرادف :

يعتبر الترادف سمة مميزة للغة العربية وأثره في اللغة لا يقل خطورة عن أثر المجـــاز. والترادف كما عرفه الامام فخر الدين الرازى (١) (هو الألفاظ المفردة الدالة على شـــئ واحد باعتبار واحد واحترزنا بالافراد عن الاسم والحد فليسا مترادفين وبوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم فانهما دلا على شئ واحد لكن باعتبارين : أحدهما علـــى الذات والآخر على الصفة) .

وكما اختلف أهل اللغة على المجاز من قبل فان اختلافهم كان أشد على الترادف وقـد ذهب فريق كبير من علماء اللغة الى انكاره وبين الإمام فخر الدين هذا حين أرجع ظنهـــم عن المترادفات على أنه من المتباينات حيث يقول (٢) (ومن الناس من أنكره وزعم أن كل مـــا يظن من المترادفات فهو من المتباينات اما لأن أحدهما اسم ذات والآخر اسم الصفـــــة أو صفة الصفة قال : والكلام معهم اما فى الجواز ولا شك فيه أو فى الوقوع اما من لغتين وهـو أيضا معلوم بالضرورة أو من لغة واحدة كالحنطة والبر والقمح وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شبه فضلا عن حجة) .

كذلك ذهب كتاب السبكى فى شرح المنهاج الى انكار الترادف فى اللغة (٣) علـــى أنه من المتباينات التى تتباين بالصفات كما فى الانسان والبشر فى موضوع باعتبار النسيـــان أو أنه يؤنس والثانى أنه بادئ البشرة .

وأيضا سلك هذا المذهب ابن فارس فى كتابه فقه اللغة حيث يرى أن الاسم واحد ومـا به من الألقاب فهو صفات فكل صفة لديه معناها وهى مخالفة لمعنى الأخرى .

وقد سلك الأصوليون أيضا نفس المسلك فى انكارهم للترادف ويرجعون ذلك الى سببين :

---

١ - المزهر/السيوطى ،جـ ١ ص ٤٠٢
٢ - نفس المصدر
٣ - المزهر/السيوطى جـ ١ ص ٤٠٣

الأول : أن تضع احدى القبيلتين أحد الاسمين والأخرى الاسم الآخر للمسمى فيشتهر الوضعان ويخفى الواضعان أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر وهذا مبني على كون اللغات اصطلاحية .

الثاني : أن يكون من واضع واحد بقصد اكثار الوسائل المعبرة لتجنب النسيان وكذلك التوسع في طرق الفصاحة وأساليب البلاغة .

أما الدكتور علي عبد الواحد (٢) فيعدد الأسباب الحقيقية لكثرة المترادفات :

١ - طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى وقد نقل اليها هذا الاحتكاك طائفة كبيرة من مفردات هذه اللهجات فغزر هذا مفرداتها .

٢ - أخذ جميع المعاجم عن قريش وغيرها من القبائل فدون كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلا بها فكثرت بذلك المفردات ومترادفاتها .

٣ - أن كثيرا من الكلمات التي تذكرها المعاجم على أنها مرادفة في معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة في الأصل لهذه المعاني بل مستخدمة فيها استخداما مجازيا .

٤ - أن الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها للوطن الواقع أسماء بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء .

٥ - أن كثيرا من الألفاظ التي تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيره .

أما عن موقف الراغب من الترادف فهو ينكره يدلنا على هذا ما جاء في مقدمة مفرداته عن تأليفه كتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينهما من الفروق الغامضة وذلك بقصد اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من اخوانه كذكر القلب والفؤاد والصدر ونحو ذكره تعالى "ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون"

---

١ - فقه اللغة/دكتور علي عبد الواحد ص ١١٠

وأخرى " لقوم يتفكرون " وفى أخرى " لقوم يعلمون "وفى أخرى " لقوم يتفقهون " .

فهو يرى أن من فسر الحمد لله بقوله الشكر لله ،ولا ريب فيه بلا شك فيه فقد فسر القرآن ووفاه البيان ان ذلك باطل فكل لفظ عنده لديه اختصاصه وموقعه من الجملة كما جاء فى مادة صبر حيث يقول (الصبر الامساك فى ضيق يقال صبرت الدابة حبستها بلا علف وصبرت فلانا خلفته خلفة لا خروج له منها ،والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عليه والصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فان كان حبس النفس لمصيبة سمى صبرا لاغير ويضاده الجزع وان كان فى محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان فى نائبة مضجرة سمى رحب الصدر ويضاده الضجر وان كان فى امساك كلام سمى كتمانا ويضاده المذل وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا ونبه عليه بقوله " والصابرين فى البأساء والضراء - والصابرين على ما أصابهم - والصابرين والصابرات. .)

وكذلك فى تفسيره لمادتى شك وريب حيث يقول عن الشك (الشك اعتدال النقيضين عند الانسان وتساويهما وذلك قد يكون لوجود امارتين متساويتين عند النقيضين أو لعدم الامارة فيهما والشك ربما كان فى الشئ هل هو موجود أو غير موجود ؟ وربما كان فى جنسه من أى جنس هو وربما كان فى بعض صفاته وربما كان فى الغرض الذى لأجله أوجد . والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسا فكل شك جهل وليس كل جهل شك قال " لفى شك مريب - بل هم فى شك يلعبون - فان كنت فى شك " واشتقاقه اما من شككت الشئ أى خرقته قال :

وشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

فكأن الشك الخرق فى الشئ وكونه بحيث لا يجد الرأى مستقرا يثبت فيه ويعتمد عليه ويصح أن يكون مستعارا من الشك وهو لصوق العضد بالجنب وذلك أن يتلاحق النقيضان فلا مدخل للفهم والرأى لتخلل ما بينهما ويشهد لهذا قولهم التبس الأمر واختلط وأشكل

ونحو ذلك من الاستعارات والشكة السلاح الذى به يشك أى يفصل) .

أما عن مادة ريب ففيه يقول (ريب : يقال رابنى كذا وأرابنى قال أن تتوهم بالشئ أمرا ما فينكشف عما تتوهمه قال الله تعالى "يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث - فى ريب مما نزلنا على عبدنا " تنبيها أن لاريب فيه وقوله "ريب المنون "سماه ريبا لا أنه مشكك فى كونه بل من حيث تشكك فى وقت حصوله فلانسان أبدا فى ريب المنون من جهة وقته لا من جهة كونه وعلى هذا قال الشاعر :

الناس قد علموا أن لابقاء لهم   لو أنهم علموا مقدار ما علموا

ومثله "أمن المنون وريبها تتوجع " وقال تعالى "لفى شك منه مريب - معتد مريب " والارتياب يجرى مجرى الارابة قال "أم ارتابوا أم يخافون - وتربصتم وارتبتم " ونفى عن المؤمنين الارتياب فقال " ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون " وقال "ثم لم يرتابوا " وقيل " دع ما يريبك الى ما لا يريبك " . وريب الدهر صروفه وانما قيل ريب لما يتوهم فيه من الكر والريبة اسم من الريب قال "بنوا ريبة فى قلوبهم أى تدل على دغل وقلة يقين .

٥ - تحقيق الألفاظ :

لما كانت الغاية المقصودة عند كل متصد أو مفسر للنص القرآنى هو بيان معانيه فقد أدرك الراغب بحسه اللغوى بأن هذا لن يتأتى الا بعملية تحقيق الألفاظ وعلى هذا أشار اليها فى مقدمته على أنها من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانى القرآن - والواقع فان تحقيق هذه الألفاظ ليس بالامر اليسر على الدارس المحدود ثقافة القيام به فالأمر يتطلب أمورا شتى ليس بوسع أحد أن يجمع كلها وقد قام الراغب بتوضيح الصفات المطلوبة للمتصدى للقرآن . (١)

(فجملة العلوم التى هى الآلة للمفسر ولا يتم صناعته الا بها هذه العشرة :

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٢٤

علم اللغة والاشتقاق والنحو القراءات والسير والحديث وأصول الفقه وعلم الأحكام وعلم الكلام وعلم الموهبة فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها خرج من كونه مفسرا للقرآن برأيه ومن نقص عن بعض ذلك مما ليس واجبه معرفته في تفسير القرآن وأحس من نفسه في ذلك بنقصه واستعان بأرباب واقتبس منهم واستضاء بأقوالهم لم يكن انشاء اللع من المفسرين برأيهم فان القائل بالرأى ها هنا من لم تجتمع عنده الآلات التى استعانوا بها في ذلك تفسره وقال فيه تخمينا وظنا فانما جعله النبي عليه السلام مخطئ وان أصاب فانه مخبر بما لم يعلمه وان كان قوله مطابقا لما عليه الأمر في نفسه) .

وذلك أن على المتصدى للنص عند قيامه بعملية تحقيق الألفاظ أن يتابع اللفظ منذ نشأتها أو استعمالها الأول فالألفاظ التى استعملها القرآن هى الألفاظ التى يستعملها الناس فيما يكتبون والمشرعون في حجاجهم واستنباط الأحكام .

وهذه الألفاظ لم تبق على ما كانت عليه منذ أن نزل بها الوحي بل عملت في دلالاتها أحداث الزمن وتدرج الفكر وتنوع الحضارة . ومن هنا ربط الراغب بين هذا وبين اباحة التفسير هل يصح أن يكون هناك تفسير بالرأى أو لا ينبغي وما هي ثقافة ذلك المفسر .

الواقع فان الراغب لا ينفي التفسير بالرأى وانما يرجع الاباحة والحظار الى نوعية الدلالة التي يريد القرآن الكريم أداءها للناس فما كان سنة كالحديث عن القيامة والبعث والصواب والعقاب فالقول فيه الى الرسول الكريم (١) أما ما كان متصلا بالأخلاق والآداب فانه يتحدد تفسيره بمقتضى اللغة وعلى هذا فقد كانت اللغة هى أول العلوم التى نص عليها في ثقافة المفسر مع باقي العلوم التى ذكرها وعلى هذا فتكاد عملية تحقيق الألفاظ تحكم عمل الراغب في مفرداته . وهو في هذه العملية يعتمد اعتمادا كبيرا على تلك المادية اللغوية التى ينطلق منها دائما الى تحديد الخطوات التى مرت بها حياة اللفظة وهو ان لم

---

١ - مقدمة التفسير / الراغب

يفصل مراحل التدرج في حياة المادة في مقدمته ولا في أثناء عرضه لمادته اللغوية انما أشار في مقدمة التفسير (١) الى أن للفظة حدين بداية ونهاية وأن البداية هي المعنى المادي والنهاية هي التجريد وأن الذين فسروا بعض النصوص القرآنية منهم من أخذ بالنهاية فالذين أخذوا بالبداية هم المجسمون والذين أخذوا بالنهاية هم البالغون بالتنزيه وهم أهل الاعتزال وأن الذين وقفوا موقفا وسطا فيكاد ينبئ كلامه أنهم الأشاعرة .

ومعنى هذا أن الراغب يكاد يحدد أسباب الاختلاف بين الفرق الاسلامية في بعض المسائل الاعتقادية في اختلافهم في استعمال اللغة وترجيح وجوه الدلالة فيها . ومن هنا اتخذ الراغب هذا المنهج أصلا في ترتيب المعاني للفظة القرآنية ومن أمثلة ذلك مادة " جعل " اذ يقول فيها (جعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر اخواتها ويتصرف على خمسة أوجه : الأول : يجرى مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا - قال الشاعر :

وقد جعلت خلوص بني سهيل   من الأكوار مرتعها قريب

والثاني : يجرى مجرى أوجد فيتعدى الى مفعول واحد نحو قوله عز وجل " وجعل الظلمات والنور - وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة " .

والثالث : في ايجاد شئ من شئ وتكوينه منه نحو " وجعل لكم من أنفسكم ازواجا - وجعل لكم من الجبال اكنانا - وجعل لكم فيها سبلا " .

والرابع : في تصيير الشئ على حالة دون حالة نحو " الذي جعل لكم الأرض فراشا - انا جعلناه قرآنا عربيا " .

والخامس : الحكم بالشئ على الشئ حقا كان أو باطلا فان الحق فنحو قوله تعالى " انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين " وأما الباطل فنحو قوله عز وجل " وجعلوا لله مما ذرأ من

---

١ - مقدمة التفسير / الراغب

الحرث والأنعام نصيبا - ويجعلون لله البنات - الذين جعلوا القرآن عضين " والجعالة خرقة ينزل بها القدر والجعل والجعالة والجعيلة ما يجعل للانسان بفعله فهو أعم من الأجــرة والثواب وكلب يجهل كناية عن طلب السفاد والجعل دويبة) .

ففي هذه المادة يربط بين الاستعمال بين طبيعة الوجود نفسه وماهية هذا الوجود ســواء أكان موجودا يتعلق بالذات العلية أم بسواه كذلك في هذه المادة يرد بها على المعتزلــة في قولهم بخلق القرآن " انا جعلناه قرآنا عربيا " .

كذلك من أمثلة استخدامه للمادية مع تتبع دوران اللفظة مادة " بطن " وفيها يقــــول (أصل البطن الجارحة وجمعه بطون قال تعالى " واذ انتم أجنة في بطون أمهاتكم " وقــد بطنته أصبت بطنه والبطن خلاف الظاهر في كل شيء ويقال للجهة السفلى بطن وللجهــة العليا ظهر وبه شبه بطن الأمر وبطن البوادى والبطن من العرب اعتبارا بأنهم كشخـــص واحد وأن كل قبيلة منهم كعضو بطن وفخذ وكاهل ولى هذا الاعتبار قال الشاعر :

الناس جسم وامام الهــدى ... رأس وأنت العين في الرأس

ويقال لكل غامض بطن ولكل ظاهر ظهر . . . والبطن كثير الأكل . . . والبطانة خـــلاف الظهارة وبطانــة ثوبي بآخر جعلته تحته . . . وتستعار البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك قال عزوجل " لا تتخذوا بطانة من دونكم " أى مختصا بكم يستبطن أموركم. . . . . والبطان الحزام يشد على البطن . . . والبطين نجم هو بطن الحمل والتبطن دخول فــي باطن الأمر . . .) .

والراغب حين يتتبع هذه المادية متنقلا منها الى الكشف عن مدارك التطور في حيــاة الألفاظ ينتقل من ذلك الى تتبع الاستعمال القرآني والبحث عن الحس الرابط بين المعاني ومن ذلك كلامه عن مادة " خزى " اذ يقول :

(خزى الرجل لحقه انكسار اما من نفسه واما من غيره فالذى يلحقه من نفسه هو الحيــاء

المفرط ومصدره الخزاية ورجل خزيان وامرأة خزيى وجمعه خزايا وفي الحديث " اللهم احشرنا غير خزايا ولا نادمين " والذي يلحقه من غيره يقال هو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى ورجل خزى قال تعالى " ذلك لهم خزى فى الدنيا " وقال تعالى " ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين - فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا - لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا " وقال " من قبل أن نذل ونخزى . . .) .

وهناك مواد كثيرة تصلح بأن يستشهد بها على منهج الراغب الأصفهانى اذ يتضح فيها دقة عله ومهارته بالدوران باللفظة متنقلا بين منبعها المادى ثم مدارج تطورها ثم استعمالها فى القرآن الكريم .

ومما نلاحظ لدى الراغب أيضا أن تحقيق معانى الألفاظ عنده قد يترتبط بماديات تحدد بها دائرة المعنى ضيقا أو اتساعا ومبنى ذلك كله على العرف وهو يختلف من بيئة الى أخرى ومثال ذلك مادة " خمر " اذ يقول (أصل الخمر ستر الشئ ويقال لما يستر به خمار لكن الخمار سار فى التعارف اسما لما تغطى به المرأة رأسها وجمعه خمر قال تعالى " ليضربن بخمرهن على جيوبهن . . . . " واخمرت العجين جعلت فيه الخمير . . . والخمر سميت بكونها خامرة لمقر العقل وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر وعند بعضهم للمتخذ من العنب والتمر لما روى عنه صلى الله عليه وسلم " الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنبة" ومنهم من جعلها اسما لغير المطبوخ ثم كمية الطبخ التى تسقط عنه اسم الخمر مختلف فيها .)

ومما نلاحظه فى هذا أن الراغب فى الألفاظ المرتبطة بحكم شرعى يستقصى معانى اللفظة اذ يرى أن تلك الألفاظ لها مفهوم تشريعى يحتاج فى بيانه الى ما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل كالصلاة والزكاة وما اليه وعلى هذا فهو يكتفى فيهما ببيان التدرج الدلالى لها من المادية الى التجريد فاذا ما انتهى الى كونها صارت مصطلحا فقهيا حال ذلك على أصحاب الفقه لأنهم أعرف بهذه الدلالة وأقدر على بيانها

وذلك لضرورة الالمام بالحديث والسنة في تحديد هذه الدلالة وبيان أبعادها غير أنه يلفت الى ضرورة بعض الألفاظ مصطلحا في الاعتقاد عند الفرق الاسلامية فيقول مثلا : وهي عند المتكلمين - عند الفلاسفة - عند الصوفية - وذهب المتكلمون وذهب . . . ولا يكاد يفصل القول في بيان هذا المصطلح عند هذه الفرق فاذا ما عرض للفظة من ألفاظ القرآن تتصل بالهداية والتوجيه الالهى ويكاد الناظر في كتاب الله يحار أن في استعمال هذه اللفظة في أماكن متعددة ما يشبه سمتا من التعارض أسرف في بيان الدلالة مقرنا ذلك بالاستعمال نفسه وبالموضوع الذى استعملت فيه هذه اللفظة كما رأينا في مادة " خمر " ولعل أبرز مثال لذلك مادة "هدى " ومن هنا دفع ما يمكن أن يوجه الى النص القرآنى من احتمال التناقض والواقع فان القاضى عبد الجبار المعتزلى في كتابه تنزيه القرآن على المطاعن أشار الى بعض احتمالات هذا التناقض وجاهد في أن يبين دلالات الألفاظ التى اتخذها بعض الملاحدة سندا فيما ذهبوا اليه غير أن صنيع عبد الجبار يكاد يتحدث في التفسير وحده دون النظرة الشاملة المستقصية لمدارك حياة اللفظة .

وهكذا في كل ما سبق فانه يتضح لنا أن الراغب في مفرداته قد عنى بعدة أمور :

أولا - التطور الدلالى للفظة من ماديتها الى معنويتها الى ما لحقها من وضع واصطلاح .

ثانيا - ملاحظة التطور في الاستعمال مصدرا وفعلا ثم اختيار بعض المصادر دون بعض مع الاشارة الواقية لاختلاف الاستعمال باختلاف المعانى والمقاصد .

ثالثا - اللفت الى الايحاءات الناتجة عن استعمال الصنيع في بعض المواضع دون بعض كاقامة الصلاة والمصلين .

رابعا - ربط الاستعمال بمدارج حياة اللفظة وعلاقتها بالانسان .

خامسا - عرضه لبعض المعانى الاصطلاحية التى اختلفت فيها وجهات النظر .

سادسا - محاولته التوفيق بين الألفاظ التى يقال عنه مترادفة وبخاصة في الاستعمال القرآنى

ومنها كلة " الريب " والشك - ولما آثر القرآن استعمال الأولى في مواضع والثانية في مواضع أخرى فان كان في هذا التفريق لا يدخل في تفصيلات واسعة بل يجعل ذلك لرسالة أخرى خاصة بهذه الفروق .

٦ - موقف الراغب من التفسير والتأويل :

بهذا التحقيق للألفاظ ومعانيها فان الراغب قد كشف لنا عن المنهج الأنجح والأدق في تفسير النص وتأويله مبينا كيف يدخل الخطأ على المفسر أو المؤول الذى لا يلتزم بهذا المنهج ومن هنا فرق بين التفسير والتأويل في مقدمته التى ضمنها أصول هذا المنهج والتى حدد فيها الطريق الذى ينبغى أن يسلكه المفسر أو المؤول وهو يرى أن القرآن وان كان في الحقيقة هداية للبرية فان الناس لن يتساووا في معرفته بل كل وفق ثقافته فالانسان لديه بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه فكلام الله " وكل شئ أحصيناه في امام مبين - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ " فان هذا لا يظهر الا للراسخين في العلم وأن الآية " ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " أنه عنى به تفسير القرآن الذى هو أشرف العلوم وعلى هذا فقد قام بتحديد ثقافة المفسر وحددها بعلوم عشرة هى علم اللغة والاشتقاق والنحو والقراءات والسير والحديث وأصول الفقه وعلم الأحكام وعلم الكلام وعلم الموهبة . فمن تكلملت فيه هذه العشرة واستعملها استطاع ان يفسر القرآن برأيه أما من نقص لديه شئ من هذا واستعان واقتبس فهو ليس من المفسرين برأيه أو برأى من أخذ عنه فان قوله لا يخرج عن تخمين وظن .

والراغب في هذا التحديد لثقافة المفسر فانه يعتبر هذه العلوم هى آلة المفسر حتى يدق عمله خاصة في عملية التفسير والتأويل وهما المصطلحان اللذان شاعا في الأمة الاسلامية واللذان صدرت عنهما حركة التفسير القرآنى بل أن التأويل كان المنطلق الذى تشعبت منه أصول هذه الحركة .

والراغب يفرق بين التفسير والتأويل فيقول : (الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظ بينهما لكن جعل الفسر لاظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبئ عن البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء وجعل السفر لابراز الأعيان للأبصار فقيل سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح وسفرت البيت اذا كنسته . - والتأويل من آل يؤول اذا رجع) . (١)

كذلك يرى الراغب أن التفسير أعم من التأويل وأصدق منه وأنه يعنى ببيان معاني الألفاظ وقريبها أما التأويل فانه يمثل مرحلة تأتي بعد التفسير ويستعمل في المعاني ويرجع تعميم الراغب للتفسير عن التأويل في أنه يستعمل في كل فروع الأدب على عكس التأويل الذى يستعمل أكثره في الكتب الالهية اذ أنها تقوم وظيفة الكتاب الدينى في قيادته للحياة الدينية على اختلاف العصور والأزمان ذلك أن هذا الكتاب لا يمثل العصر الذى نزل فيه وانما يشرع لمستقبل الحياة ويخطط لآمادها البعيدة - وكتاب ذلك شأنه يعين المشرع على أن يستنبط منه أحكاما أو تشريعات تسير مع الحياة ولأن التأويل يفسح الطريق للمفسر أو المؤول فيضيف من المعاني للنص ما يراه محققا لأهدافه الكبرى في تسيير خطى الحياة الانسانية فان الشطط أحيانا يؤخذ على المؤول الطريق فيغرق أو يمعن في التأويل خاصة وأن التأويل يمكن استعماله استعمالا عاما كاطلاق لفظ الكفر في الجحود المطلق أو خاصا في الجحود بالله ولهذا فانه يقسمه الى نوعين : تأويل مستكره وتأويل منقاد فالتأويل المستكره لديه أربعة أضرب :

الأول - أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته نحو قوله تعالى "وان تظاهر عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح والمؤمنين" فقد حمله بعض الناس على على بن أبي طالب رضى الله عنه .

الثاني - أن توفق بين قولين مثل من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة كما نحن مكلفون كما جاء بالآية "وان من أمة الا خلا فيها نذير" وقد قال الله تعالى "وما من دابة في الأرض ولا

---

١ - مقدمة التفسير/الراغب ص ٤٠٢

طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم " .

الثالث - أن يستعان فيه بخبر مزور كقوله تعالى " يوم أن يكشف عن ساق " على أنه الجارحة مستدلا بحديث موضوع .

الرابع - الذى يستعان به اشتقاقات واستعارات بعيدة كقول بعض الناس فى البقر أنه يبقر العلوم .

فهو يرى أن الأول يدور على ألسنة الفقهاء الذين لم يقروا فى معرفة الخاص والعام والثانى يجرى على ألسنة المتكلمين الذين لا دراية لهم بأصول النظم وقواعده التى تكفل سلامة تفسير النص وتأويله وأن الثالث يشيع عند أصحاب الحديث الذين لم يتهذبوا فى قبول الأخبار والرابع يذيع بين الأدباء .

والتأويل المنقاد هو ما لا يعرض فيه ما سبق ذكره وليس معنى هذا أنه لا يقع فيه خلاف بين أصحابه وانما يصح أن يقع فيه الخلاف فى الاشتراك فى اللفظ نحو قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " هل هو العين أو القلب أو راجع الى النظم نحو قوله تعالى " وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا " فهل هذا الاستثناء محصور على المعطوف أو مردود اليه أو لغموض فى المعنى ووجازة فى اللفظ نحو قوله " وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم " .

ولهذا كان اعتناء الراغب بالكلام عن الحقيقة والمجاز وارتباط التأويل بالمجاز أو بظاهرة التجوز ولهذا نراه ينكر المجاز العقلى ويرى أن القول به يفتح بابا واسعا لاضطراب التأويل وفساده وانه ليس الا أسلوبا يتخذ فى عرض المعانى دون حاجة الى تشقيق القول فيه واتساعه . ولأن التجوز يمثل مرحلة من تدرج حياة اللفظة فى الاستعمال فان الرجل يعنى بالكلام عن الظاهر وهو كما عرفه الأصوليون المتأخرون ما يتبادر الى الذهن من المعانى بمجرد اطلاق اللفظ .

وفكرة الظاهر احتلت مكانا بارزا فى حياة التفسير القرآنى لا عند الفقهاء وحدهم بل

عند المتكلمين وأغلب مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة انما تقوم على انكار الأوليـــن للظاهر وعلى الأخذ الآخرين به ولهذا كان لابد عند الراغب من بيان الظروف والملابســات التي تحتمل على الأخذ بالظاهر أو الأخذ به وهنا تبرز فكرة احترام العقل عند الراغـــب وتقدير ما يصل اليه عن طريق الاستدلال وأنه لاينبغي أن ينحى العقل جانبا فى فهم النصوص القرآن وهذا هو المعنى الذى أشار اليه الغزالي فيما بعد في رسالته قانون التأويل من أنه لاتصادم مطلقا بين العقل والنقل متى سلم العقل من الآفات المؤدية الى فساد تفكيـــره واستدلاله .

فصلا للكلام عن الحكم التى ينطوى عليها النص القرآنى سواء أكانت أحكاما عينية أو عقلية وفى أن القرآن يشتمل على أصول الأدلة وأن الحديث الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم أن لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حدا ومطلعا يشير الى أن القرآن يعطى الناظر فيه من المعاني على قدر ما أتيح له من المعرفة واتساع الثقافة وعمق التفكير ومن هنا يختلف النـــاس فى تفسير النص على عكس ما ذهب اليه الباطنية - ثم أن القرآن قد قسم نفسه الى محكـــم ومتشابه وأن هذا التقسيم يحكم طبيعة المعرفة والثقافة التى يعمق بها نظر المفسر أو المؤول للنص ومن هنا يقسم الراغب تأويل الكتاب الى قسمين ج جلى وخفى فالجلي ما يدرك بالحاسة أو ببديه العقل - والخفى ما يتوصل اليه بغير ذلك من العلوم والمعارف وهو الذى سبـــق أن أشرنا اليه فى تحديده لثقافة المفسر .

الفصـــــل الخامـــس

الراغــب والفقــه والتشريـــــع :

ويكاد الرجل ينأى بنفسه عن ترجيح مذهب على آخر وانما يعرض للالفاظ بما هـــي معارض للمعاني ولباس لها فيقول عند تفسير قوله تعالى - والذين يظاهرون من نسائهـــم ثم يعودون لما قالوا - وهي آية الظهار يقول عند أهل الظاهر هو أن يقول للمرأة ذلـــك ثانيا فحينئذ يلزمه الكفارة وقوله تعالى " ثم يعودون " كقوله فان فاءوا ، وعند أبي حنيفـــة العود في الظهار أن يخلو بها بعد أن يظاهر منها ، وعند الشافعي هو امساكها بعـــد وقوع الظهار عليها مدة يمكنه أن يطلق فيها فلم يفعل وقال بعض المتأخرين المظاهـــرة هي يمين ومثل ذلك ما يذكره في القرء وهل هما الطهر أو الحيض وهو يرجح أن القـــرء اسم للدخول في الحيض عن طهر وليس الطهر كما للحيض مجردا ولا للطهر مجردا وقولـــه تعالى يتربصن بانفسهن ثلاثة ". . " أي ثلاثة دخول في الطهر من الحيـــــض - ولا نكاد نراه يتوسع في ذكر آراء المدارس الفقهية حول الالفاظ الخاصة بالتشريعـــات أو الاحكام وانما يدع ذلك للمتخصصين ذلك أن العبادات والمعاملات وهما يمثلان أهـــم أبواب العمل التشريعي لا يقتصر فيهما على النص القرآني وحده بل لابد من الاستعانـــة في تحديدهما وبيان أحكامهما من السنة قولا كانت أو فعلا أو اقرارا وذلك فيما يقـــرر ميدان آخر علماؤه المعنيون به الواقفون أنفسهم عليه ومن هنا نراه لا يدخل في تفصيـــلات علمهم ودقائقه فحين يتعرض لمعنى الربا يفسره بانه الربا الزيادة في المال على وجه خاص مفرقا بينه وبين الزكاة تفريقا خفيفا مسترشدا في ذلك بما يدل عليه الحس القرآني فـــي استعمال الكلمتين وكذلك رأيه في الحديث عن الصلاة اذ يقول والصلاة هي العبـــادة المخصوصة التي لم تنفك بمسكها شريعة من الشرائع وان اختلفت صدرها بحسب شـــرع شرع ولذلك قال تعالى " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " .

وهكذا نرى الراغب يوجز في شرح الفاظ العبادة والفقه بعامة ويفصل القول فـــي

آيات الاعتقاد على ما تقضى به ضرورة الايات والكشف ويرجع ذلك الى أن الاعتقاد يدخل العقل في تحديده والاستدلال عليه ،أما العبادات فلا مدخل للعقل فيها ولا تكاد

في باب معقول الشريعة بهذا المعنى الذى توسع فيه القوم فى حديثهم عن المعاملات كالبيع والاجارة والشفعة والرهن اذ ان هذه الاشياء كلها مما يخضع لتقدير المجتمع وعرفه ومساندة المصلحة العامة فيه وقد أشرت فى حديثى سابقا

أن الفقهاء كان يفتون باب العارية اذا هلكت فى يد المستعير فلا ضمان عليه في راجعهم فى ذلك المنصور الخليفة العباسي وطلب اليهم أن يضمنوه رعاية للمصلحة وحملا للمستعير مع عدم التهاون بالعارية والحفاظ عليها وقد أفتى بذلك المنصور حين أحس أن المجتمع الاسلامى قد تعقدت حياته تعقدا بالغا وأن الناس من حوله انشأوا يترخصون فيما يجب عليهم نحو العارية فاراد أن يردهم الى ما هو أصوب .

ومن أجل ذلك لم يدخل الراغب في تفصيلات واسعة لشرح الفاظ العبادات أو المعاملات تاركا ذلك كله للمتخصصين فانهم بها أدرى وممارستهم العمل الفقهى يقفهم على سداد الرؤية وحسن التقدير وأصالة الرأى ،هذا الى علمهم بالحديث والسنن وهى الاصل الثانى الذى يحدد الخطى الآمنة فى سير الحياة التشريعية ولعل هذا يقودنا أو يحملنا على أن نتحدث عن الراغب الناقل .

ومن الثابت أن الراغب لم يكن محدثا ولم يكن راوية الحديث ولذلك نراه يتساهل في رواية الاثار ولا يكاد يشغل نفسه بنقدها أو ترجيح بعض رواياتها ويبدو هذا التساهل عنده في المحاضرات فانه عقد فصلا عن الاثار الواردة فى كبار الصحابة وهو يسردها سردا دون أن يعقب عليها أو ينقد بعض أسانيدها ثم أنه فى بحوثه الاخرى وبخاصة ما يتصل منها بالتفسير لمقدمته لايعنى بالاحاديث وروايتها أيضا ويظهر أن الرجل شغل نفسه بما هو أوقع أو وصل الى يده من الكتب والبحوث التى نقل منها أو استفاد بها وهو في نقوله الكثيرة التى يوردها فى المفردات لا يكاد يعزو المنقول الى صاحبه الذى نقل

عنه الا في اللغة لوضوح النقل من كتبها عنده وسهولة النقل عنها أما في النقول عن
المتكلمين أو الحكماء أو الفلاسفة فانه يكتفي بذكر عامتهم فيقول " وذهب المتكلمون ولسنا
ندري أي المتكلمين يقصد أمتكلمي أهل السنة أشاعرة وماتريدية أم متكلمي الاعتزال وشيوخه
وحين يتجه الى اللغة يذكر أسماء أصحابها وقد يناقشهم فيذكر أبا عبيدة والفراء والزجاج
والخليل وسيبويه فينقل رأي أبي عبيدة في قوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على
الله رزقها) وأن المراد من الدابة الانسان والاولى عند الراغب أن يراد باللفظ على العموم
دون تخصيص بالانسان وقد ذكر ذلك في مادة (دب) اذ يقول " ويستعمل في كل حيوان
وان اختصت بالتعارف في الفرس قال تعالى " والله خلق كل دابة من ماء وقال
وبث فيها من كل دابة وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه وقوله تعالى ولا يؤاخذ
الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . قال أبوعبيدة عن الانسان خاصة
والاولى أجراؤها على العموم وفي كلامه عن الدهر يذكر ما حكاه الخليل من قوله دهر
فلانا نائبه دهرا أصابته وبلغت منه وكان الراغب غير مطمئن الى هذا النقل لعدم اطلاعه
على نصوص استعملته فيفرده الى ناقله ليتحمل هو عهدة الحكاية والرواية كما أنه ينقل
عنه أيضا ما ذهب اليه في المعنى الأم اذ يقول الخليل والأم كل شيء ضم اليه سائر
ما يليه . فالامر هين أوضح ذلك لأن الرجل كتب أيضا في معاني القرآن
يقول الراغب في وذهب الزجاج أما نقله عن الزجاج في قوله تعالى
" ومن أهل الكتاب أمة قائمة أي ذات طريقة مستقيمة والقرآن ترك الايضاح لوضوح
المعنى وجلائه وفي المادة نفسها يحكي ما يذهب اليه الفراء فما معنى قوله تعالى
" وفيهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني قال هم العرب اذ لم يكن لهم كتاب واستمع
اليه فيما يقوله في مادة بشر البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامة الادباء
وقال ابوزيد يعكس ذلك وغلط أبوالعباس وغيره ولم يكشف لنا عن الخطأ الذي وقع فيه
أبوالعباس وغيره ولكنه يذكر اجمالا .

لكن الشيء الذي يلفت النظر الى انه يقول (كذا قال عامة الادباء) وهي استعمال يدل على ما وراءه من أن الادباء في هذه الفترة وهم الذين يتخذون الادب صناعة وحرفة اما بانتاج أدب متميز أو بالاطلاع على الآداب السابقة والافادة منها في تصفية الحس اللغوي وتأصيله وتعميق أبعاده أولئك الادباء كانوا مصدر التفريق بين المعاني وتحديد كم كل منها وهم بلا ريب غير اللغويين الرواة الذين لا هم لهم الا الجمع بالتصنيف والرواية .

واذا كان الراغب يستأنس بما يراه فان ذلك يتفق وطبيعة عمله الذي يقوم على استقراء جميع وحدة المعاني التي تستعمل فيها المادة اللغوية الواحدة في نص أدبي معجز وهم أقدر الناس على التصرف في الالفاظ واكسابها معان جديدة بما لا يجافي منطق اللغة وطرائقها في التعبير والبيان كما أنهم القادرون على ادراك حس اللغة .

جميع افعال الله ابداع لا في مادة ولا من شيء ولا على مثال ولا في زمان ولا في مكان ولا بآلة ولا بمرشد ومعين فهو الفاعل الحقيقي وما سواه فاعل على ضرب من التوسع كل فاعل يحتاج الى معاون .

يرجع الى ص١٦٦ باب الفرق بين الفعل والعمل والصنع (ربط لباب الترادف) أو المنتج (ذكر فيها الافعال الفارسية) .

الباب الثالث

كتاب المفردات

دراسه مقارنه

الفصل الأول : كتاب المفردات دراسه مقارنه

الفصل الثانى : مقارنه بين اللغة العربية والعبرية

الفصل الثالث : المعاجم العبريه

الفصل الرابع : دراسة مقارنة بين صنيع الراغب وصنيع غيره من العلماء اليهود

الباب الثالث

كتاب المفردات مقارنا بما يشبهه من بحوث
والتأريخ لحركة المعاجم العبرية

الفصل الأول

الغريب ومنهج العلماء المسلمين فيه مع مقارنته بمنهج الراغب في المفردات :

بعد أن انتهينا من بيان منهج الراغب الأصفهاني في مفرداته فانه يتعين علينا أن نعرف مكانة هذا الكتاب بين أقرانه من الكتب التي ألفت في هذا المجال ـ ذلك أن تأليف الراغب لم يكن جديدا أو غريبا على تراثنا العربي وقد عرف هذا النوع من الدراسة منذ أن بدأ المسلمون يفسرون القول ويقلبون وجوههم يدلنا على هذا ما نسب الى ابن عباس من أنه أول من ألف في غريب القرآن وقد أشار بروكلمان الى نسخة من هذا الكتاب كانت موجودة في برلين قبل الحرب العالمية الثانية (١) وكذلك ماكر مايرهوف في خزانته (٢) وأيضا ما سجله السيوطي من أقواله في تلك المحاورة التي جرت بينه وبين نافع بن الأزرق (٣) ولا يعنينا في هذا المجال صحة نسبة الكتاب الى ابن عباس وهل هو الذى قام بتأليفه أم هو مرويات عنه فان الذى يهمنا هو أن نعلم متى ظهر هذا العلم .

واعتقد أن ظهور هذا العلم مقرون بنزول الكتاب نفسه وتفسير الرسول والصحابة له فالتفسير لا يكون عادة الا لما غمض القول فيه وأخفيت معانيه وعلى هذا فيكون الرسول والصحابة والتابعون هم المدرسة الأولى للتفسير وعمادها في هذا هو تفسير الغريب نظرا لما اتصف به العرب من أنهم أهل بلاغة وفصاحة فالتفسير هنا لا يأتي الا للغامض والبعيد عن الفهم وبهذا المعنى أخذ العلماء المسلمون وهم بهذا فانما يقصدونه الغرابة اللغوية

---

١ ـ تاريخ الأدب العربي /بروكلمان ١٥/ ٣٢

٢ ـ كتالوج مكتبة " ماكر مايرهوف "

٣ ـ اتقان/السيوطي ،جـ ١ ص ١٢١

وليست الغرابة البلاغيـــة .

ويبدو أن أول من خاض فيه على نطاق كبير هو ابن عباس كما يدل على ذلك النص الـذى أورده السيوطى فى الاتقان (١) (وأولى ما يرجع اليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة وها أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس عن طريق أبى طلحة خاصة فانها من أصح الطرق عنه وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه مرتبا على السور قال ...)ثم أورد بعد ذلك مجموعة كبيرة من الألفاظ التى قام ابن عباس بتفسيرها وشرحها .

كذلك نجد أن المرة الأولى التى تقابلنا فيها كلمة الغريب فى الحديث الذى أخرج عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال (اذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فـــان الشعر ديوان العرب) وعلى هذا فان الفترة التى ظهر فيها هذا المصطلح لا تتعدى النصف الأول من صدر الاسلام ومنه تناول العلماء المسلمون فى شرح الغامض والبعيد عن الفهـــم وأخذ بها أصحاب المعاجم العربية فى تحديد مدلول هذا المصطلح .

ومن الطبيعى أن يزداد هذا المدلول اتساعا نتيجة أمرين :

أولهما - اتساع دائرة الاسلام وشمولا كل الجزيرة العربية بقبائلها المتباينة اللهجات واللغات .

ثانيهما - الفتوح الاسلامية الكبيرة التى سادت أماكن لا يتكلم أهلها العربية ولا احـــدى لهجاتها .

الانتشار بعيدة عن الأذهان بقدر لغة قريش أو بلغة دخيلة اذ يحتوى القرآن على بعـــض المعرب من اللغات المحيطة بالجزيرة العربية فمنها ما هو فارسى كالأباريق والاستبـــرق وحبشية كالأرائك والمشكاة وسريانية كالأسفار والربيين وعبرية كالقوم واليم - فقد كانت هنـــاك جاليات يهودية ونصرانية علاوة على ما يوجد لديهم من العبيد والجوارى وهذا أيضـــا

١ - اتقان/السيوطى ، جـ ١ ص ١١٤

بخلاف التجارة برحلتيها الشتاء والصيف - كل هذه الأمور جعل الكثير من الألفاظ يدخل الى البيئة العربية ويشيع استخدامها عند البعض كما أن اتساع الاسلام وشموله الجزيرة العربية بأكملها قد ساعد بدون شك على وجود الغريب من اللغة ثم انتشار الفتوحات الاسلامية بعد ذلك شرقا وغربا وتكوين مجتمعات جديدة لا تملك من العربية ذلك الحس اللغوى الدقيق - وظهور طبقة المولدين كل هذا أدى الى اتساع هذا المصطلح فاللغة فى تطورها وسيرها مع الزمن قد يطرأ على ألفاظها من الاستعمال والاهمال ما جعل بعض ألفاظ العصر النبوى يلوح لقلة استعماله وكأنه غريب وهذا راجع بلا شك الى تغير الحس اللغوى وتطور أساليب البلاغة .

قد حظى هذا المصطلح بقدر كبير من جهود وعناية العلماء به وأصبح من أوائل العلوم التى وجه اليها العلماء همهم . وأرى أن عملية جمع اللغة وتحديد القبائل التى يؤخذ منها والشعراء الذين يستشهد بشعرهم له صلة كبيرة بهذا العلم فتشدد العلماء فى عدم أخذهم الا للفصيح واقتصارهم فى الجمع على المفردات الصعبة المعانى كان خدمة كبيرة لهذا الفرع من الدراسات اللغوية .

واذا ما حاولنا استقصاء كتب هذا العلم فسنجدها كثيرة جدا حسب رأى السيوطى (١) (النوع السادس والثلاثون فى معرفة غريبه أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد . . .) ولا يعنينا هنا استقصاء ما ألف فى الغريب فقد فقدت معظم تلك الكتب الأولى التى تناولت هذا العلم فى القرن الأول وما وصل الينا لا يمثل هذا العلم الا فى مرحلة تطوره وليس فى نشأته ولكن الذى يهمنا فى هذا المجال هو بيان تطور المناهج فى هذا الفرع حتى القرن الخامس وهو القرن الذى عاش فيه الراغب الأصفهانى حتى نستطيع ان نوضح قيمة المفردات بين أقرانه من الكتب التى ألفت فى هذا المجال .

---

١ - الاتقان / السيوطى ، ج ١ ص ١١٥

فاذا أخذنا ما عزى الى ابن عباس بصرف النظر عما اذا كان هو مؤلف هذا الكتاب أم لا وان كنا نميل الى عدم الأخذ بهذا لأنه في هذه الفترة التي عاشها ابن عباس لم تكن فترة يسمح فيها بالتأليف وذلك لقربها من عهد الرسول الذى منع كتابة أى كتاب أو حديث سوى القرآن ومن الطبيعي أن يلتزم ابن عباس القريب من الرسول نسبا وعهدا بهذا المبدأ كما أنه لم تصلنا أية اخبار عن قيام أى فرد خلال هذه الفترة حيث أن كل الجهود قد وجهت للحفاظ على الكتاب الكريم مما حدا بهم حتى الى عدم تدوين الحديث الشريف بأغلب الظن أن هذا الكتاب هو مرويات عنه جمع بعد ذلك ونسب اليه كما اهتم بالنسبة الى كتاب نهج البلاغة المنسوب الى على بن أبي طالب رضي الله عنه .

فمن هذه المرويات عن ابن عباس نستطيع أن نتبين المنهج الأول للغريب فنرى لنرى أن اتجاهه فيه يتمثل فى شرح تلك الكلمات الغريبة سواء أكانت مهجورة أو مستعملة في لهجة من اللهجات يدلنا على هذا قوله بعدم معرفته كلمة فاطر الا عندما احتكم اليه الاعرابيان بموضوع البئر (١) ،فاذا ما أخذنا بهذه الناحية من التجائه الى لغة القبائل الأخرى مع ما عرفنا عنه من تردده على المجتمعات اليهودية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت ومخالطته لهم والمامه بلغاتهم ومع تلك المحاورة التى أوردها السيوطى فى الاتقان بينه وبين نافع بن الأزرق للاستدلال على معانى الكلمات فى الشعر العربى فاننا نرى أن منهجه هو شرح تلك الكلمات باستخدام معرفته للغات واللهجات الأخرى مع الاستشهاد بالشعر العربى لتوضيح المعنى وهو توضيح بسياق الكلمة وموقعها .

واذا ما حاولنا تتبع تطور منهج العلماء المسلمين فى الغريب فاننا لانجد بعد مرويات ابن عباس هذه التى استخلصنا منها هذا المنهج سوى كتاب غريب القرآن لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) وذلك أن جميع تلك الكتب التى تناولت الغريب وذكرها المؤرخون أمثال ياقوت (٢) قد ضاعت ولم تصل الينا وعموما فانه من غريب ابن قتيبة نستطيع أن نتبين التطور

١ ـ الاتقان/السيوطى ،جـ ١ ص ١١٥

٢ ـ معجم الأدباء/ياقوت ١٠٨/١

التطور الذى حدث واتجاه العلماء فيه وذلك أن هناك أمورا كثيرة قد غايرت ما كانت عليه منها من ناحية البيئة والجنس والثقافة فلم يعد القرآن يدرس فى الصحراء كما كان على عهد الرسول والصحابة ولم يوقف تناوله على العرب بل تناوله العرب والعجم علاوة على أن فى هذه الفترة كانت الثقافة اليونانية والفارسية قد أرست أصولها داخل الثقافة العربية ولذا فان نظرتنا الى غريب ابن قتيبة تختلف عن نظرتنا لغريب ابن عباس .

أما عن منهج ابن قتيبة فى غريبه فانه قد قسم بحثه الى كتابين الأول هو غريب القرآن والثانى هو تأويل مشكلة .

أما منهجه فى الغريب فقد بناه على أساس من الاختصار اللغوى عن الحشو بالنحو والحديث والأسانيد وتفسير السلف كما جاء فى مقدمته ،وقد بدأ الكتاب بذكر الأسماء الحسنى وصفات الله وتأويلها واشتقاقها ثم بالألفاظ التى كثر ترددها فى الكتاب ثم تفسير الغريب ـ وكما جاء بمقدمته من أنه استنبط كتابه هذا من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة ولم يخرج عن مذهبهم فقد جاء منهجه فيه خليطا من منهجى كتب اللغة وكتب التفسير . ففى مواضع كثيرة كان يضم الاثنين معا فبينما يفسر الألفاظ لغويا ويستشهد عليها بالأشعار والأحاديث وأقوال العرب ويبين وزنها أحيانا يفسرها قرآنيا فيبين من السور المدنى والمكى وكثير من أقوال المفسرين .

وقد قام ابن مطرف الكنانى بجمع كتابى ابن قتيبة فى كتاب واحد سماه القرطين حاول فيه أن يضع المشكل مع الغريب كل فى بابه الا أنه فى منهجه هذا قد أضاع الكثير من أقوال ابن قتيبة التى اختصرها فى عملية الضم وقد نهج ابن مطرف فى كتابه على نظام المصحف وترتيب السور وفرق بين الغريب والمشكل بوضع حرف " ع " للغريب و " م " للمشكل أما الكتاب الثالث الذى نستطيع فيه تلمس مناهج الغريب . . . . فهو كتاب السجستانى الذى قيل أنه ألفه خمس عشرة سنة (١) وكان يقرأه على شيخه ابى بكر بن

---

١ ـ نزهة

الانباري - ويختلف منهج السجستاني في كتابه هذا عمن سبقوه فالكتاب بدون مقدمة يشرح فيها أهدافه من تأليفه ومنهجه فيه بل كان الترتيب لديه وفقا للحروف الأبجدية فكان يقسم الحرف الواحد الى ثلاثة أبواب فيقدم المفتوح ثم المضموم ثم المكسور ولا يعتبر الحرف الثاني وما بعده فيورد الألفاظ المبدوءة بالحرف الواحد مختلطة في غير نظام أما عن منهجه فيه فقد كان يشرح الألفاظ لغويا ويفسرها تفسيرا سريعا مختصرا ولم يستشهد فيه بأسماء العلماء الذين أخذ منهم أو نقل عنهم .

مقارنة بين صنيع الراغب وما صنعه غيره :

بعد استعراضنا لمناهج الغريب مثلة فيما روى عن ابن عباس ثم كتاب ابن قتيبة وكتاب السجستاني ومع ما درسناه في الباب السابق عن منهج الراغب في غريبه فانه يظهر لنا جليا تلك الفروق الواضحة بين كل واحد من هؤلاء .

وما لا شك فيه أن المرجع الأول لهذه الفروق أن كل واحد من هؤلاء يمثل مرحلة من المراحل ويعكس أيضا سمات عصره . فالغريب كما رأينا عند ابن عباس وكما أورده السيوطي لم يتعد معان كلمات أو الدلالة على أصل هذه الكلمات فكان التجاء ابن عباس الى اللهجات العربية والشعر العربي يلتمس فيهما أصول هذه المعاني وهو بهذا فانه يجابه احتياجات عصره في القليل الذى يسأل فيه .

وبعد ابن عباس فان هذا المنهج الذى قام بوضعه لم يكن ليجابه احتياجات ما تلا عصره من اتساع الدولة العربية واعتناق أجناس وشعوب أخرى للدين الاسلامى فكان هذا المنهج الذى رأيناه عند ابن قتيبة وهو منهج يتسم بالشمول وأقصد بالشمول هنا القرآن كله وليس ما خاض فيه ابن عباس فقط وهو بهذا أيضا يعبر عن حاجة عصره هو الآخر ومنهج ابن قتيبة هذا في الواقع ليس محدد السمات لأنه خليط من اللغة والتفسير والروايات وكذلك تقسيمه الكتاب الى كتابين أحدهما للمشكل والآخر للغريب وفي ترتيب السور .

أما عن كتاب السجستاني فهو ما نستطيع أن نعده أولى المعاجم فيه ونحن بهذا نرى أن هذه المرحلة هي أهم مراحل الغريب التى تطور عنها كتاب الراغب فيما بعد لأنها تمثل ظهور أول معجم قرآني خاص بلغة القرآن ومعانيه - وقد جاء هذا الكتاب أقرب الى المختصر منه الى كتاب فلم يتوسع مؤلفه في شئ سواء في استقصاء المعاني اللغوية للفظة والاستشهاد عليها بالشعر أو الحديث .

واذا ما قارنا هذه الكتب ومناهجها بكتاب الراغب ومنهجه فيه لرأينا فرقا كبيرا من

الناحيتين : ناحية المادة وناحية الترتيب

فمن ناحية المادة فهي عند الراغب استقصاء معاني اللفظة في القرآن مع تحديد مدلول هذه الألفاظ في الاستعمال القرآني المختلف وكذلك الاشارة الى عجمتها ان كانت الكلمة أعجمية أو معربة أو دخيلة .

ومن ناحية الترتيب فكان ترتيبه سهلا غير معقد فهو الترتيب الألف بائي الذي تسير عليه معظم المعاجم العالمية الحديثة .

ومن هذا نرى أن كتاب المفردات في غريب القرآن أشمل وأكمل وأنظم هذه الكتب التي وضعت للغريب ويحق ما قاله عليه الدكتور حسين نصار أنه قمة من القمم وما قاله أستاذنا المرحوم أمين الخولي أنه نواة تخجل من بعدها الأجيال نظرا لعدم وجود من يعنى بها أو يكملها أو على الأقل يضع على غرارها . (١)

---

١ - دائرة المعارف الاسلامية " مادة تفسير "

الفصـــــل الثانـــــى

مقارنة بين اللغة العربية والعبريـــة :

قبل أن نشرع فى بيان أهم جوانب حركة المعاجم العبرية فانه لابد لنا أولا من القيام بالقاء نظرة عامة على الروابط بين اللغتين وما بينهما من قرابة وتشابه فقد أصبح يعول الآن على الدراسات المقارنة فى الكشف وتوضيح ما غمض فى اللغات وبالذات فى تحديد أصولها وجذورها . وهو ما نحتاجه لعربيتنا نظرا لفقدان معظم آثار العصر الجاهلى وما قبله - وترجع أهمية اللغتين الى الآتى :

١ - أن كلا من اللغتين قد نزل بهما نص مقدس له مكانته الروحية بين أهله يتناولونه كل يوم فى حياتهم ويعدونه مصدرا للأحكام والتشريع .

٢ - أن كلا من اللغتين قد عاشتا متجاورتين زمنا طويلا .

٣ - أن كلا من اللغتين تنتسبان لعائلة لغوية واحدة وهى اللغة السامية الأم .

٤ - أن هناك تشابها كبيرا بين اللغتين سواء فى المفردات اللغوية أو

٥ - أن نهضة اللغة العبرية قد قامت على أكتاف علماء عاشوا وسط أمتنا العربية كما سنرى وأخذوا مناهج علمائنا اللغوية وقاموا بتطبيقها على لغتهم .

وتفصيلا لهذه النقاط فان أول الملاحظ أن اللغتين قد نزلا بهما نص مقدس فالتوراة وقد نزلت بالعبرية والقرآن وقد نزل بالعربية - وصاحب نزول الرسالتين حركات لغوية ودينية قوية من تجميع وشرح ومحافظة على النص الدينى ولو وضعنا هذه النقطة تحت الدراسة المقارنة لاتضح لنا هذا الشبه الكبير بين الحركتين على اتساع فارق الزمن بينهما وان كان لهذا تعليل عندنا فان مرجعه الى العقلية السامية للعرب واليهود على السواء التى كانت تعطى للنصوص الدينية اهتماما خاصا وعناية زائدة عن غيره من النصوص .

أما عن انتماء اللغتين الى عائلة لغوية واحدة فان اللغتين هما أهم اللغات اللغة السامية الأم وأيضا هما الباقيتان للآن منها وفي كل منهما تتضح خصائص تلك اللغة الأم - فمن ناحية مخارج الحروف فهي في اللغة الأم (١) (الهمزة - والهاء والحاء والخاء والعين والغين والباء والفاء) التي يظن بعض اللغويين أنها كانت انفجارية مثل حرف P الأوربي - والدال - والذال والثاء والجيم التي يظنون أنها كانت غير معطشة كالجيم المصرية" والكاف واللام والميم والنون والراء والواو والتاء والطاء والقاف والصاد " ويظن أنه بجانب الصاد البسيطة كان هناك صوتان آخران للصاد أحدهما تصاد والثاني قساد والسين والشين " ويظن أنه كان هناك حرف آخر نطقه بين السين والشين وأخيرا حرف الزاى؛ وهذه الأبجدية يرى الدكتور حسن ظاظا (٢) أننا لو عرضنا على هذه الأصوات مجموعة مخارج الحروف الموجودة في كل لغة من اللغات السامية لوجدنا أن أوفى هذه الأبجديات وأشدها انطباقا على مخارج الساميين الأول هو أبجدية العربية الفصحى التي تحتوى على كل ما جاء بالأبجدية الأم ما عدا السين التي بين الصادين الفرعيتين وقد حدث في لغة العربي نطقان جديدان هما الضاد والظاء .

كذلك فاننا نجد أن معظم الأبجدية العبرية موجودة في هذه الأبجدية الأم وهي (أ ب ج د هـ و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت) .

ويعدد الدكتور حسن ظاظا أهم صفات اللغة الأم بالآتي : (٣)

١ - انطلاق المشتقات من المادة الثلاثية المجردة الى المزيدات بحروف الزيادة .

٢ - أنها في تصريف الأفعال لا تتضمن الا صيغتين اثنتين أحدهما تدل على تمام وقوع الحدث وانقضاء وانقطاعه وهي التي تسمى بصيغة الفعل الماضي والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه وهي التي تسمى المضارع .

---

١ - الساميون ولغتهم/د .حسن ظاظا ص ١٩

٢ - نفس المصدر

٣ - نفس المصدر

٣ - كثرة الصيغ الفعلية التي تدل على معاني أخرى ملابسة للحدث " وهي الجزم والتوكيد "

٤ - وجود الجملة الاسمية فيها أي التي تقوم على مبتدأ وخبر دون رابطة لفظية بينهما .

٥ - شيوع اشتقاق الأسماء من الأفعال فيها والعكس .

فنحن اذا ما نظرنا الى هذه الصفات لوجدناها كاملة في اللغتين وعلى هذا تعددت أوجه الشبه بين الاثنتين في نواحي كثيرة مثل الأفعال والضمائر والتراكيب والمفردات .

ال وقد ذهب عدد كبير من علماء السامیات في هذا الصدد

الى جمع ما تشابه من المفردات مثل الأستاذ مراد فرج في كتابه ملتقى اللغتين العبرية والعربية حيث كان يورد اللفظة المشتركة بين الاثنين لفظا ومعنى ومن أمثلة ما ورد بكتابه كلامه عن مادة " حج " اذ يقول (الحج القصد - حج الينا فلان قدم وتعورف استعماله في القصد الى مكة للنسك والحج الى البيت خاصة تقول حج يحج بالضم حجا . الماضي العبرى فيه " حجج " فتحان ثانيهما ممدود . وقد يخفف فتقول حغ بفتح الممدود . والمضارع يحغغ فتحان أولهما ممدود فضم مال ممدود . ووقد يخفف فتقول " يحغ" فتح فضم فمال ممدود . خروج ٢٣ - ١٤ والنظام هو فرض الحج الى بيت المقدس ثلاث مرات في السنة وهو من حج وحجا وحجى في اللغتين بمعنى الطواف حول الشيخ فحول البيت بفرح وشرور وفي سفر الخروج ٥ - ١ " يحجو " فتح فضان أولهما ممدود والثاني مشدد أى يحجوا والألف العربية [illegible] للاشباع وهو على وجه الطلب والأمر من موسى وهارون الى فرعون أن يرسل بني اسرائيل فيحج لله " فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم " فالنسخة العربية قالت ليعيدوا . واسم الفاعل أي الحاج هو عبريا بلا ادغام " حوغغ " ضم فكسر ممدود صموئيل

ويشربون ويحجون والكلام عن الخلافة أعداء داود يفاجئهم وينكل بهم وهم على هذه الحال ولكن الفعل هنا بمعنى حجي يحجا أى فرح بفرح أى أنهم كانوا آكلين وشاربين وحاجين

أى فرحين مغتبطين طربين بما استولوا عليه من الغنائم فى الحرب كما هو باقى النظم وقد ضربهم داوود (أفناهم وهزمهم وغنم ما بأيديهم. فحجج عبريا يدخل عربيا فى مثله وفى حجه والفرح والطرب هنا نوع من أصل الفعل فهو طواف ورقص وترنح والنسخة العربية قالت يأكلون ويشربون ويرقصون . ورقص هو عبريا رقد ومنه عربيا الرقدان الطفر نشاطا وركض منه كرقص وركد والحج اسم الفعل " ولله على الناس حج البيت " هو عبريا حغ بفتح المدود وأطلق على العيد .

ولا بدع فالأصل فى الفعل حاج يحوج فى اللغتين قصد ولجئ أى الى الله خروج ٣٢/٥ والنظم حج الله غدا . وسفر القضاة ١٩/٢١ والخروج ١٢/٢٣ و ١٦ والجمع حجيم فتح فكسر شدود ممدود ـ ملاخى ٣/٢ وحجى (حجى) فتح فكسر مشدد ممدود هو ابن جاد بن يعقوب ـ تكوين ١٦/٤٦ وحجاى "حجى " فتحان ثانيهما مشدد ممدود فسكون من الأنبياء (انظر سفر حجى وانظر حوج وحجا وحجى) .

فالاستاذ مراد بهذا الاتجاه الى دراسة الاتجاهات والظواهر اللغوية والحياة الاجتماعية المتشابهة بين العرب واليهود وهو بهذا أيضا فانه يرجع الى الأصول الأولى التى تشعبت بعد ذلك الى لهجات ولغات عديدة وغريب من محاولته هذه ذهب أيضا الأب مرمرجى الدومنكى (١) حيث قام بدراسة المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية فجاء منهجه قريبا من منهج الأستاذ مراد وخاصة فى ارجاعه أصل الكلمة الى أصل مشترك بين الاثنين وبعد وأن ارجاع الأب مرمرجى الدومنكى الكلمات العربية والعبرية الى أصل مادى مشترك يقوم به الجميع هو الأساس الذى اعتمد عليه فى هذا التشابه بين المفردات ولتقارب نطقه الصوتى وبعد وهذا واضحا فى كلامه عن كلمة حج وصلاة فهو يرجع مادة حج الى اسم صوت طبيعى يخرج عند الرأس وخاصة الرأس السامى الشرقى الذى يغلب كسرة عناء واجهاد نفر يسمع معه بضرورة الطبيعة اسم صوت مثل " حك " ويعد الأب

-١

مرجعى هذا أول تطور لمعانى كلمة الحج (٢) وكذلك فى كلامه عن مادة صلاة حيث يرجعها الى أصلها الأول وهو "صل" بمعنى حرارة (٢)ثم تطورها بعد ذلك الى استعمالها الحالى وأن اصلها سريانى أخذها العرب .

أما عن النهضة اللغوية باللغة العبرية فقد ازدهرت وترعرعت فى مجتمعنا العربى حيث عومل اليهود على أنهم أهل كتاب يعيشون فى ذمة المسلمين فتركت لهم الحرية كاملة فى الدين والثقافة (٣) ومن هنا ظهر سعديا الفيومى المتوفى سنة ٩٤٥ م الذى تلقى دراسته الأولى فى الشريعة اليهودية واللغة العبرية فى مصر ثم رحل الى فلسطين حيث تتلمذ على أبوكثير يحيى ابن زكريا الطبرى ثم عاد الى بغداد حيث درس النحو العربى واتصل بالحركة اللغوية الهائلة على أيام العباسيين كما درس المذاهب الاسلامية وخاصة مذهب المعتزلة الذى ألف على غراره كتاب الامانات والاعتقادات .

كما قام فى هذا الوقت بترجمة الكتاب المقدس الى العربية وألف كتابا آخر ضخما اسمه كتاب اللغة مقتفيا به آثار اللغويين العرب . كذلك من الآثار التى تركها سعديا كتاب الشعر العبرانى الذى اقتفى فيه أوزان وبحور الشعر العربى ولعل من أهم أعمال سعديا كتاب التفسير السبعونيين لفظة المفردة وهى ألفاظ من غريب الكتاب المقدس وشكلة لجأ سعديا الى طريق المقارنة اللغوية فى هذه الالفاظ فبحث عنها بلفظها باللغة الإرامية والعربية .

ومن العلماء اليهود الذين عاشوا فى الدولة العربية وكان لهم نتاجا ضخما داوود بن مروان المقمص الذى ألف كتابا اسمه عشرون مقالة حاول فيه ربط الفكر اليهودى بالحضارة الاسلامية . وأبوسليمان داوود بن ابراهيم الفاسى الذى ألف معجما كبيرا لعبرية التوراة مشروحا بالعربية اسمه الأجرون أو كتاب جامع الألفاظ . ومن اليهود الذين سايروا العرب فى دراسة اللغة يهود ابن قريش ومناحم بن صروق وابن حيوج ود ونشر بن لبرط وأبو الوليد

---

١ - المعجم - الدوماسكى
٢ - " صـ٤
٣ - " صـ١١٦

مروان ابن جناح أكبر علماء اليهود الذى ألف كتاب للأصول كبوكتاب اللموع .

ولقد كان للتشابه الفكرى أيضا نصيب كبير فى استنادنا على قيامنا لتلك المقارنة بين ما صنعه الراغب الأصفهانى وما صنعه اليهود رغم تباعد الزمن بين التفكيرين فقد نشأ عند اليهود اختلافا كبيرا حول معانى التوراة ونرى هذا واضحا فيما وضعه اكليمنر السكندرى فى القرن الثانى الميلادى حين وضع قواعد ينبغى أن يلتزمها من أراد تفسير الكتاب المقدس (١) وتتلخص هذه القوانين فى أنه يجب أن يفهم من كتاب المقدس معنى مجازى وأن لكل شرائع موسى أربعة معان وأن لكل منها معنى عن المستقبل وأنه يجب أن نقدر معنى الكتاب المقدس الظاهر يقودنا الى الايمان البسيط أما المجازى فيقودنا الى أسمى درجات الايمان .

ومن هنا نرى تشابها كبيرا بين قواعد اكليمنر وما أخذ به المتصوفة بعد ذلك .

كذلك كانت لفكرة الوحى مع فكرة المه خفى أثرها فى توجيه التفسير وجهة خاصة فلقد أخذ فيلو الفيلسوف اليهودى بفكرة الوحى مع اله خفى ووجد أنها تحتاج الى البحث عن معنى خفى وراء المعانى الطبيعية .

وفى هذا تتشابه معه الفرق الباطنية التى كانت ترى أن لكل آية ظهرا وبطنا وكذلك مع بعض الفرق الشيعية التى كانت ترى أن لكل آية معنى جليا وآخر خفيا .

وهكذا نرى أنه قد قدر للغة العبرية أن تكون لها نهضة بجانب اللغة العربية بعد هذا التلطم الذى عاشت فيه قرونا طويلة واضطهدت متقوقعة داخل مجتمعات مغلقة محاولة جاهدة الحفاظ على ما بقى من تراث لديها والواقع فان اللغة العبرية تمتاز بآثارها الكثيرة المبينة لمراحلها المختلفة فقد كانت فكرة المجتمعات المغلقة "الجيتو" التى ابتكروها هى صمام الأمان أمام محاولات القضاء عليها أكثر من مرة فمن السبى البابلى فى العراق الى

---

١ ـ دائرة المعارف البستانى مجلد ٦ ص ١٧٣ ،نقلا عن دائرة المعارف الفرنسية .

الا قامة بالصحراء الشرقية لمصر - تلك الرقعة الفسيحة من الأرض - تنقل اليهود فيها وفي كل مرة كانوا يتركون من الآثار ما يدل على وجودهم وقد ساعد على هذا أن التوراة قد نزلت على مدى طويل من الزمن قارب الألف عام وكتب في أماكن مختلفة على عكس القرآن الكريم الذى أنزل في مدة قصيرة لم تتعد العشرين عاما ونزل في بيئة واحدة واذا ما نظرنا الى اللغة العبرية على أنها كانت تحافظ على نفسها بالتقوقع داخل مجتمعات مغلقة فان اللغة العربية على عكس منها انتشرت شرقا وغربا بل في بعض الأماكن زادت في مجتمعاتها .

ومن الملاحظ أن اللغة العبرية لم يتح لها حظ كبير من الدراسة وتقعيد قواعدها منذ هدم الهيكل الا في عصر الدولة العربية التى وجدوا فيها تسامحا لم يجدوه من قبل في أى أمة من الأمم التى عاشوا فيها يدلنا على هذا اختيار سعديا الفيومى حاخاما أكبر وزعيما للاكاديمية اليهودية في بلدة صور القريبة من بغداد في العصر العباسى .

الفصـــــل الثالـــــث

المعاجم العبريـــــة :

بعد تسجيل الكتاب المقدس بحروفه فقط وحيث أن اللغة العبرية تعتمد على السواكـن دون الحركات بقصد تسليم . لنطق و القراءة الصحيحة والكتابة وعلى هـذا فقد ظهرت منذ القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة الماسوريين أى رواة النص المقدس برسمه ونطقه وكان هذا النص المروى رواية شرعية صحيحة يسمى ماسورت (١) Massorath وكانوا يميزون فيه الألفاظ المكتوبة بشكل والتى تقرأ بشكل آخر [Hebrew text] أى المقروء والمكتوب كما كانوا فى بعض الأحيان يبينون ما يكتب بحذف حرفى المد الواو والياء ويسمونه [Hebrew text] أى ناقصة وما يكتب باثباتهما ويسمونه [Hebrew text] أى الملآن .

وحوالى أواخر القرن التاسع الميلادى أى بعد ظهور العلوم الانسانية بما فيها كتابـة المصاحف وتنقيتها وضبطها بالحركات ظهرت عند اليهود مدرسة تسمـى [Hebrew text] المنقطين وهؤلاء كانت وظيفتهم ضبط النصوص بالحركات الصحيحة والفصل بين الآيـــات كعلامات الفصل . ثم انقسمت المدرسة الى شعبتين : (٢)

الأولى - وتوجد فى العراق وتدعى الشرقية أو البابلية وتسمى بالآرامى [Hebrew text]

الثانية - وتسمى [Hebrew text] (الطبرانية)

. وكانت الأولى تعبر عن الحركات بالنقط أما الثانية فترسمها بالرسم الذى اتبع وبقى حتى الآن .

ومنذ القرن العاشر الميلادى بدأ اليهود يهتمون بتفسير الكتاب المقدس بطريقة منهجيـة تقليدا للمسلمين وأهم من ذلك أنه وجد عندهم كتاب فى التصوف والروحانيات اسمه كتـاب الخليقة باللغة العبرية اسمه فيها [Hebrew text] وهو ينسب فى مقدمته الى سيدنـا

---

١ - حوالى ٥٠٠ - ١٢٠٠ م

٢ - د. حسن ظاظا

مرداس هيح . رسالة ماجستير

بالسوربون ١٩٥٨

ابراهيم وهى نسبة منتحلة بدون شك . كما نسبه بعض الباحثين اليهود الى أحد مشاهير أحبارهم وهو الربى عقيبة بن يوسف(١) أحد واضعى التلمود وأشهر شخصياته ونظرا لأن هذا الكتاب يبحث فى أسرار الحروف وعلاقتها بالفلك والتنجيم والحساب الرياضى فقد استدعى الأمر من شراحه أن يبحثوا فى الطبيعة اللغوية لنطق الحرف ومن أشهر هذه الشروح شرح سعديا الفيومى الذى وضعه على هذا الكتاب اللغة العربية ويمتاز هذا الشرح بأن فيه ملاحظات قيمة من الناحية اللغوية والصوتية وقد أوجب اليهود على المعلم أن يلقن تلاميذه فى ظل العصر الاسلامى معلومات أساسية ذكرها أحد علمائهم وهو يوسف بن يهوذا من برشلونة بالأندلس فى كتاب له عنوانه طب النفس عقد فيه فصلا سماه أدب المعلم والمتعلم يقول فيه (سعى يقرئهم תורה נביאים וכתובים أى التوراة وكتب الأنبياء وكتب الحكمة التى يتكون منها العهد القديم - التناخا) بضبطها وتلحينها بان يخرجوا (أل) טעמים (أى اشارات الفصل والوصل أى ما هى عليه) . ثم دعم وجهة نظره بنص شرعى من التلمود واستمر بعده فقال (ويعلمهم ما منها מלא ، وما منها חסר ، وما منها מלעיל ° أى التى تأتى النبرة فى مقطعها الأول ° وما منها מלרע وسائر ما ينبغى أن يعلم وهذا يكون بتعليمهم كتب מסרת مثل מסורת המקרא وكتاب [illegible] وغير ذلك من كتبها) .

واستمر ذلك الى أن ظهر أستاذان كبيران فى القراءات هما بن آشر وبن نفتلى اللذين عاشا فى القرن العاشر الميلادى أحدهما فى العراق والآخر فى اقليم طبرية فى الأغلب .

وابتداء من أوائل القرن العاشر وبتأثير الفكر العربى ظهر عند اليهود علم قواعد اللغة דקדוק

وبالرغم من أن اليهود فى ظل الصهيونية المعاصرة لا يريدون الاعتراف بجهود طائفة

---

١ - حوالى ٥٠ - ١٣٠ م .

القرائين الا أنه لا يمكن انكار جهود هؤلاء في هذا الميدان ومن أشهرهم في القرن العاشر أبوالفرج هارون المقدسي الذى ذكر أنه ألف ثمانية كتب في النحو والصرف واللغة كما كتب معجما عبريا سماه المشتمل وكما يعني ترتيبه فيه على نظرية الثنائية وفي ما ذكره المستشرق اليهودى نيوباور . ومن القرائين أيضا أبويعقوب يوسف بن بحتوى الذى يظن أنه هو نفسه الذى سماه بعض المؤلفين أبويعقوب يوسف بن نوح وكان معاصرا لسعديا الفيومي وألف بالعربية نحوا عبريا اسمه كتاب الدقدوق وألف تلميذه سعد شيران كتابا سماه كتاب اللغة (١)

وفي ميدان المعاجم نجد المدرسة القرائية تقدم لنا أبوسليمان داوود ابن ابراهيم الفاسي الذى توفي في أواسط القرن العاشر وقد ألف كتاب جامع الألفاظ أو الأجرون وهو معجم عبرى عربي . ومما لا شك فيه أنه كان معاصرا لسعديا الفيومي ولكنه كان أصغر سنا من سعديا . وقد ذكر الفاسي اسم الفيومي في معجمه مرتين وبالرغم من أنه قرائي فانه في معرض اللغة يستشهد أحيانا بعلماء المشنا مع أن المذهب القرائي لا يؤمن بهم وهو يسميهم الأوائل وهي نفس التسمية التي يستعملها يهود ربانيون مثل سعديا ومروان بن جناح بل أنه يشير الى علماء التلمود أيضا تحت اسم الرابنون وفي بعض الأحيان يتحدث عنهم في ضمير الغائب فقط فيقول هم ويبدو من مقدمة معجمه أنه يؤمن بشئ يشبه نظرية الاشتقاق الكبير عند ابن جني بل يزيد على ذلك بأن بعض الأصول في الاشتقاق ترتكز على حرف واحد وبعضها على اثنين وأحيانا على ثلاثة أو أربعة يقول في ذلك :

(الألفاظ العبرانية تدور على حروف هي أمهات الألفاظ وأسها واعلم أن الأمهات على أربعة أقسام : احدها أن تكون الكلمة دائرة على حرف واحد وكل لواحقها ترتفع والحرف ثابت مثل [Hebrew handwritten] والثاني ـ هو أن تدور الكلمة على حرفين وترتفع اللواحق وتثبت وهي مثل [Hebrew handwritten]

والثالث ـ هو ما يكون أصلها ثلاث حروف ولواحقها ترتفع وهي ثابتة مثل [Hebrew handwritten]

---

١ ـ د. صبحي ظاظا

والرابع - فهي الذى أشبها أربع حروف وهي على ضربين أحدهما أربعة أحرف أصلية مثل

والثاني - أربعة مكررة مثل

وليس تزيد لغة العبراني عن هذه الأربعة وعليها يبنى كل نطقهم من الأمر والنهي والآنف والمستأنف والفاعل والمفعول والاسم والمصدر والتذكير والتأنيث ما خلا أسماء الأشخاص التى هي غير متصرفة فانها قد تزيد على أربعة أحرف مثلا :

[illegible]

واذا كان اليهود قد استطاعوا أن ينشأوا لأنفسهم معالم لغوية خاصة بهم فيما يتصل بالصوتيات فقد كانت على جانب كبير من الدقة واذا كانت دراساتهم الخاصة بالصوتيات قد زودت بمصطلحات من صميم ابتكارهم فان الأمر يختلف جدا فيما يتصل بالنحو والصرف والمعاجم اذ أنهم كانوا عالة على العرب(١)ذلك أن علم المعاجم عندهم كان متخلفا وساذجا فقد بدأت ملاحظة الاشتقاق فيه بربطه بأفكار صوفية متعلقة بالحروف الأبجدية وصلة هذه الحروف بحساب الفلك وربما لاحظنا ذلك في العبارة التى ذكرناها عن الفاسي عندما يتحدث عن الألفاظ العبرانية فيقول أنها تدور على أحرف ثم يكرر هذا خلال كل المقولة التى ذكرناها وأوضح من ذلك ما يوجد في نص صوفي عبرى اسمه

وقد شرحه بالعبرية سعديا الفيومي معتنيا ببيان ارتباط الحروف بالأعداد وارتباط ذلك كله بالبروج والأفلاك وهيئة السماء وحركتها .

ومن أوائل من ربطوا الفكر اليهودى بالمناهج اللغوية سعديا الفيومي بالذات ويبدو أنه كان قد ألف معجما عبريا بنفس اسم الأحرون الذى سمى به داوود بن ابراهيم الفاسي معجما ويبدو أن هذا المعجم قد ضاع بعد موت سعديا بقليل وحيث أن اللغويين اليهود في الاندلس الذين جاءوا بعده بقرن واحد كانوا يتحدثون عنه سماعا فقط ويسمونه بأسماء مختلفة فمناحم بن ساروق يذكره باسم شروح رب سعديا ويذكره رب موسى نزيل انجلترا باسم محبيرت أى المؤلف أو الكشكول والى جانب هذا الكتاب المفقود ذكرت لسعديا في

---

١ -

اللغة كتب أشهر من معجمه هذا أهمها كتاب اللغة الذى بقيت منه بضعة أوراق ويظهر أنه كان ضخما فى عدة مجلدات وكذلك كتاب الفصاحة واسمه بالعبرية ثم تفسير السبعين لفظة المفردة وهى ألفاظ من أغرب غريب الكتاب المقدس .

بعد ذلك تتأكد الحركة اليهودية فى المغرب والأندلس فى ظل الحكم العربى ومن أشهر علمائهم :

١ - دونش بن تميم الشفالغى المولود فى أواخر القرن التاسع الميلادى أو أوائل العاشر بالقيروان من أسرة يهودية عراقية الأصل نازحة من بغداد ويقول نيو باور أنه ألف معجما عبريا مقارنا باللغات الأخرى وهذا المعجم لا وجود له بين أيدينا .

٢ - يهودا بن قريش من تاهرت بالمغرب ويقال أنه كان معاصرا لسعديا وأنه ألف معجما ضخما أساسه الثنائية أى الأصول ذات الحرفين كما أنه من أكبر الدعاة الى الدراسة اللغوية المقارنة وله فى ذلك رسائل الى أهل مدينة فاس من اليهود يحثهم فيها على الاهتمام بدراسة لغات المشنا والتلمود واللغة السريانية والكلدانية والعربية والانتفاع بذلك فى كشف غوامض اللغة العبرية فى سنة ١٨٧٠ م .

٣ - مناحم بن ساروق : ٩١٠ - ٩٧٠ م وقد حضر الى قرطبة بناء على دعوة الحبر اليهودى حسداى بن اسحق بن شبروت الذى كان وزيرا للخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث وقد أصبح مناحم كاتبه الخاص وشاعره ومؤدب أبنائه وقد ألف فى قرطبة معجما لألفاظ العهد القديم اسمه محبرت وقد كان يتبع فى ترتيبه الثنائية مثل يهودا بن قريش وهذا المعجم يمتاز بأنه عبرى خالص وغير مشروح للعربية ولذلك ذاع صيته وانتشر فى الأوساط اليهودية فى العصور الوسطى المؤلفات الأخرى المشروحة بالعربية مقصورة على من يتكلم العربية من اليهود .

٤ - دونش بن لبرط ٩٢٠ - ٩٩٠ م :

وقد اكتفى دونش بن لبرط بمهاجمة مناحم بن ساروق فى منهجه المتعصب ضد الاستعانة باللغة العربية وقد انتصرت مدرسة المقارنة هذه فظهر من رجالها أبوزكريا يحيى بن داوود الفاسى المعروف بحيوج ويسمونه أيضا القرطبى بعد هجرته الى هذه المدينة وقد عاد الى منهج المقارنة والاعتماد على اللغة العربية بطريقة أكثر منهجية وأرسخ قدما فى قواعد الصرف العربى وقد ألف من الكتب كتاب التنقيط الذى يبحث فيه فى قواعد توزيع الحركات على الألفاظ وكتاب الأفعال ذوات الحروف اللين وهو الأجوف وكتاب الأفعال ذوات المثلين وهو المضعف وكان هدفه من ذلك ارساء قواعد نظرية الثلاثية للاشتقاق التى يقول بها الصرفيون العرب واثبات أن الفعل الأجوف الذى يكتب بحرفين فى العبرية كقحام هو ثلاثى أيضا وكذلك المضعف .

وانطلاقا من هذا أخذ النحو العبرى صورته النهائية وكذلك المعجم على يد أبى الوليد مروان   وهو مكون من جزأين الأول فى النحو والصرف وهو كتاب اللمع والثانى معجم لعبرية التوراة وهو كتاب الأصول المرتب على الحروف الأبجدية من أوائل الكلمات بعد تجريدها من الزوائد .

الفصـــــل الرابـــــع

مقارنة بين صنيع الراغب في المفردات وبين العلماء اليهود :

فطن علماء اليهود الى فكرة المقارنة بين اللغتين العبرية والعربية وما بينهما مــــن صلات وترابط ابتداء من القرن الخامس الهجري وهي نفس الفترة التي عاش فيها الراغـــب وقد سبقهم العلماء العرب لهذه الفكرة قبل هذا بوقت طويل منذ أن بدأوا يفسرون الكتاب الكريم كما رأينا عند ابن عباس ثم تتابعت بعد ذلك الكتب التي قامت بشرح الدخيل والمعرب ولكن هناك أمرا يجب الاشارة اليه وهو أن العلماء العرب في بحثهم هذا كان اتجاههـــم الأكبر الى اللغة الفارسية أكثر من العبرية والسريانية بينما كان اتجاه علماء اليهود الـــى اللغة العربية والآرامية . ويبدو أن مرجع هذا هو طبيعة المجتمع العربي في ذلك الوقـــت حيث كانت اللغة اليهودية لغة شبه ميتة لا تتناول الا في المعابد وبين عدد محدود مـــن الناس . وقد ساعدهم على هذا بدون شك اتقانهم اللغة العربية وتضلعهم في ثقافتهـــا كذلك وجودهم في البيئات الثقافية للمجتمع العربي .

فمن الذين عاشوا في البيئات الثقافية للأمة العربية سعديا الفيومي الذي عاش فـــي بغداد وبلغ منصب الحاخام الأكبر لليهود وألف بالشعر العبراني على الأوزان العربيـــة واعتمد في تفسيره للكتاب المقدس على ما أنس به ووافق هواه من لغة العرب التي كـــان يجيدها حيث كان ... للقصر العباسي كذلك اللغوي المغربي أبوسليمان بن داوود بـــن ابراهيم الفاسي القرائي الذي ألف الأجرون ومروان بن جناح القرطبي الذي عاش في قرطبة وألف كتابا في النحو اقتفى فيه آثار نحاة البصرة وسماه كتاب اللمع . وأمثال هؤلاء كثيرون من أمثال حيوج ويهودا بن قريش ومناحم بن صاروق ودونش بن لبرط والعريزى .

عاش كل هؤلاء وسط أمتنا العربية وتثقفوا بثقافتها فجاءت أعمالهم العبرية على طراز مـــا

درسوه من الأعمال العربية وهذا هو أهم وجه فى تلك المقارنة التى نعقدها فى هذا الباب بين ما صنع الراغب وما صنعوه .

فوجه المقارنة من ناحية الراغب أنه أدرك أن هناك غريب لا تفسير له فى العربية وانما تفسيره فى لغته المأخوذة منه ولذا كان يشير فى كثير من الأحيان الى عجمة اللفظة أو الى أصلها مثل مادة " مسح " حيث يقول فيها (. . . وقيل سمى عيسى عليه السلام مسيحا لكونه ماسحا فى الأرض أى ذاهبا فيه وذلك أنه كان فى زمانه قوم يسمون المشائين والسياحين لسيرهم فى الأرض وقيل سمى به لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ وقيل سمى بذلك لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن وقال بعضهم انما كان مشوحا بالعبرانية فعرب فقيل المسيح وكذلك موسى كان موشى) ومادة " ربانى " التى أشار الى أنها سريانية ومادة " حلت " وطالوط " .

كذلك كان الوضع بالنسبة لليهود وخاصة فى القرن الخامس الهجرى حيث كانوا أمام لغة شبه ميتة يفصل بينهم وبين آخر نهضة لها قرون طويلة من عصر العظمة والازدهار ولذا كان اعتمادهم على اللغة العربية ومناهجها فى قيام نهضة لغتهم .

وتتمثل أهم المناهج اللغوية للغة العبرية فى منهج سعديا الفيومى فى تفسيره للسبعين لفظة المفردة وهى ألفاظ من غريب كتاب المقدس ومشكلة لم تستعمل كل لفظة منها الا مرة واحدة مما جعل من المستحيل معرفة معناها من طريق تتبع الاستعمال كما هو النهج فى تحديد معانى ألفاظ اللغات الميتة أو الألفاظ الغريبة فى سائر اللغات وعلى هذا وعى لغوى دقيق

اللغة الآرامية والعربية ويبدو أن سعديا لم يراع الدقة فى ترجمته ونقولاته فدخل فى لغته كثير من العامى والدخيل ويظهر هذا من استعماله الفعل " شال " بمعنى " حمل " (لاوى ٩ / ٢) والفعل " أدلج " الذى عند العرب " سافر ليلا " فى معنى " سافر نهارا "

(تكوين ٣/٢٢ - خروج ٦/٣٢) .

ومن أهم ما يبرز تسلط الوعي اللغوي العربي عنده ترجمته "النصب" أي الحجارة المنصوبة تكريما أو تقديسا أو تخليدا فيستعمل سعديا كلمة "الدكاك" . وفي نظر الدكتور حسن ظاظا جمع كلمة "دكة" التي يستعملها عامة العراق وخاصة عند الشيعة النصب الخشبي الذي يقام في أيام عاشوراء لتقرأ من فوقه أو يمثل عليه أحيانا قصة استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما .

كذلك يتضح تأثير المناهج العربية على نهضة اللغة العبرية في منهج مروان بن جناح شيخ نحاة اليهود الذي أدرك تلك الصلة المتينة بين اللغة العبرية وباقي العائلة السامية وقد ألف باللغة العبرية كتابا في النحو العبري سماه كتاب "اللمع" أما عن منهجه فيه فشرحه في المقدمة حيث يقول :(وما لم أجد عليه شاهدا في المقرا (١) استشهدت عليه بما حضرني من المشنة والتلمود (٢) واللغة السريانية وجميع ذلك من استعمالات العبرانيين. مقتفيا في ذلك أثر رأس الشيبة (٣) الفيومي رحمه الله في استشهاده على "السبعين لفظة المفردة" من المشنة والتلمود وأثر غيره من الجاونيم (٤) أيضا كالسيد شريرا والسيد هاي رضي الله عنهما وأثر غيرهما أيضا وما لم أجد عليه شاهدا مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربي لم أنكل من الاستشهاد بواضحه ولم أتحرج عن الاستدلال بلائحه كما يتحرج عن ذلك من ضعف علمه وقل تمييزه من أهل زماننا لا سيما من استشعر منهم التقشف وارتدى بالتدين من قلة التحصيل بحقائق الأمور وقد رأيت رأس الشيبة سعديا نضر الله وجهه يتوكأ على مثل ذلك في كثير من تراجمه أعني أنه يترجم اللفظة العبرية الغريبة بما يجانسها من اللغة العربية وقد رأيت الأوائل رضي الله عنهم وهم القدوة في كل شيء يستشهدون على شرح غريب لغتنا بما جانسه من غيرها من اللغات) .

---

١ - المقرا : الكتاب المقدس

٢ - التلمود :

٣ - الشيبة : رئيس علماء يهود العراق

٤ - الجاونيم : الأحبار

وبعد هذا الشرح الوافي لمنهجه بعقد مقارنة بين اللسانين العربي والعبري (وأما اعتلاله وتصريفه ومجازاته واستعمالاته فهو في جميع ذلك أقرب الى لساننا من غيره من الألسن يعلم ذلك من العبرانيين الراسخون في علم اللسان العرب النافذون فيه وما أقلهم) .

ويبدو أن فكرة المقارنة بين العبرية وسائر اللغات السامية كانت منتشرة في ذلك الوقت حيث نرى ابن جناح يقول (أفلا تراهم يفسرون كتاب الله من اللسان اليوناني والفارسي والعربي والأفريقي وغيرها من الألسن . فلما رأينا هذا منهم لم نتحرج عن الاستشهاد وعلى ما لا شاهد عليه من العبراني بما وجدناه موافقا ومجانسا له من اللسان العربي اذ هو أكثر اللغات بعد السرياني شبها بلساننا .

معجم التوراة لجزينيوس :

تتمثل قمة الدراسات العبرية في هذا المعجم الذى قام بوضعه هنريش فردريك فيلهلم جزينيوس الذى توفي عام ١٨٤٢ م الذى يعتبر بداية عصر جديد في النحو والمعاجم العبرية ويعتبرها الكثيرون العمل المعجمي المطلوب لدراسة الكتاب المقدس. (١)

ويعتبر معجمه في الطبعة الأخيرة الموسعة والمنقحة هو أحسن المعاجم لدراسة الكتاب المقدس .

ولقد تعددت طبعات هذا المعجم العظيم وكانت الاولى عام ١٨١٠ - ١٨١٤ بليبزج تحت عنوان

وأشرف جزينيوس بنفسه على الطبعة الثالثة والرابعة من معجمه ١٨٢٨ - ١٨٣٤ . وقد أكمل الفصل الأخير من هذا الكتاب بعد وفاة جزينيوس ١٨٤٢ بواسطة رودجر ١٨٥٣-١٨٥٨ .

وقد تعددت طبعات هذا المعجم بعد ذلك وترجم الى اللغة الألمانية والانجليزية

---

١ -

وتعبر طبعة براون ودرايفر وبريد جز ثم طبعة بول بعد ذلك وأخيرا طبعة كولر من أحسن الطبعات لهذا المعجم وسنتناول معجم جزينيوس هذا من خلال طبعة كولر الذى يعتبر أحدث طبعات . (١)

يشرح كولر منهجه فى المقدمة ويلخصه فى الآتى :

١ - ترتيب الكلمات أبجديا وهو يرى أن هذا ليس بالمسألة الهينة حيث أن هناك عددا كبيرا من الكلمات يبدأ بباداة ولمس من السهل على المبتدئين وغير المتخصصين أن يجدوا أشكال الكلمة الاشتقاقية حيث أن اشتقاق كل كلمة ليس مؤكدا .

٢ - حصر أشكال الكلمة التى ترد وهو يرى أن يشار فقط الى الأشكال التى يمكن أن يشتق منها الأشكال الأخرى بشكل كبير وكذلك الاشكال الغير قياسية مع الاشارة الى النحو كلما بدا ذلك ملائما .

٣ - تحديد المواضع التى ترد فيها الكلمة موضع البحث وان تعذر ذلك بسبب العدد الكثير للمواضع فهو يعطى بيانات عن تردد استخدام الكلمة أو عن المواضع والأماكن وأجزاء العهد القديم التى ترد فيه .

أما عن شرحه الكلمات فهو يرى أن هناك طريقتين :

الأولى - وهى شرح النص فى سياقه وهو ما يسمى عادة بالتفسير وفيه تصبح ترجمة الكلمة صحيحة عندما يكون معناها مفهوما ويناسب السياق .

الثانية - وهى ذات شقين فالأولى طريقة علم اللغة وهو يقصد بها علم فقه اللغة المقارن حيث يرى أن عددا من اللغات تقف جنبا الى جنب مع اللغة العبرية وهذه اللغات هى : العربية ،الآرامية ،الأثيوبية ،الأكادية ، والمصرية رغم بعدها ،لكن لها أهميتها بالنسبة للكلمات المستعارة ولكنه يرى أنه من الضرورى أن نأخذ بأعظم قدر من الحرص والحكمة فى مسائل الفقه المقارن .

---

١ -

والثانية وهي علم المعنى وهو يرى أنه بسبب الضمون اللاهوتي وتلك الدراسات الأولى التي قام بها رجال الدين والتي يظن أن النص قد خدم بها الا أنه يجب عن طريق الدراسات الحديثة اكتشاف العلاقات التولدية في تطور معنى الكلمة وتغيراتها والحصول بناء على ذلك على سلسلة من المعاني مؤسسة على مبادئ تولدية سليمة .

ويطبق كولر منهجي هذا على مواده ومنها كلمة "حج" العبرية فيأتي بمعانيها في العربية والسريانية والآرامية ثم يسترسل بعد ذلك فيذكر معانيها .

فأولى المعاني التي يذكرها لمادة حج هي المعنى المادي لها الذي هو الرقص في دائرة ثم هو العيد ثم بعد ذلك العيد المرتبط بالحج ثم هو العيد المرتبط بمناسبة خاصة ثم هو التجمع حول المعبد ثم هي مكان العيد ومنها جاء الحج الى مكة ثم هي بعد ذلك التوجه في جماعات لقضاء فرض معين ثم هو التوجه في جماعات لقضاء عبادة الله .

وهو في اعطائه هذه المعاني للكلمة يقرنها بموضعها الذي جاءت فيه كما يشار الى الكتب والدراسات التي تناولت هذه الكلمة بالدراسة أو التي أعطتها تفاسير أخرى .

ومن هذا المنهج الذي اتبعه كولر في معجمه الذي أخذه عن جزينيوس فانه يتضح لنا أنه أضخم بكثير مما جاء به الراغب وذلك أن الراغب لم يستقر كل معاني الكلمة أو تتبع جميع استعمالاتها ولكنه يشترك معه في أنه اتبع نفس الترتيب الألفبائي واعطاء أشكال الكلمة الاشتقاقية وأنه قد جعل الأصل المادي وتطور حياة اللفظة هو الأساس الذي سار عليه وكذلك الاستعانة باللغات الأخرى في توضيح ما غمض .

خاتمة البحث
التوصيات

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض لأبواب الرسالة الثلاثة والتى خصصنا الأول منها لبيان حياة الراغب والثانى لشرح منهجه والثالث للمقارنة بينه وبين أقرانه الذين كتبوا كتبا مشابهة له من العلماء المسلمين واليهود نكون قد وصلنا الى نهاية هذا البحث بعد أن اجلينا ذلك الغموض الذى أحاط بشخصية الراغب الأصفهانى - تلك الشخصية التى ظلت ولم تنل حظها من التأريخ والشهرة كما حظى غيره .

وبرغم قلة المراجع التى تناولته وأيضا قلة النقولات التى استطعنا العثور عليها بين ثنايا هذه القلة القليلة فان ما حصلنا عليه من نتائج يعتبر خطوة كبيرة فى سبيل الكشف عن مزيد للشخصيات المشابهة له وأولى النتائج التى خرجنا بها أنه قد عاش فى القرن الخامس الهجرى وبالتأكيد فى النصف الأخير منه وأن اقامته فى ذلك الوقت كانت ببغداد بعد أن ترك أصفهان مسقط رأسه وأن وفاته كانت فى سنة ٥٠٢ هـ وليس كما جاء فى بعض المصادر من أنها ٤٠٢ هـ أو ٦٠٢ هـ فقد ثبت أنه قد توفى قبل الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وأيضا الغزالى الذى قيل أنه كان يستصحب معه كتاب الذريعة لنفاسته - وأنه قد عاش فى بيئتين الأولى أصفهان التى يبدو أنه ولد بها وعاش فيها فترة طويلة يقوم بالتدريس فى معاهدها التى كانت منتشرة فيها فى ذلك الوقت ثم انتقل منها فى أواخر أيامه الى بغداد حيث قام بتأليف كتابه المفردات .

ويبدو أنه عند نزوله ببغداد لم يكن قد ذاع صيته أو اشتهر ومن هنا أغفل من رجال الطبقات فقد وضح لنا أنه قد أهمل حيث لم يشايع أمراء الدولة أو يتعصب لمذهب على آخر مع عزوفه عن المشاركة فى الأحوال السياسية والاجتماعية كذلك لم ينادم الأمراء أو أصحاب الشأن ولهذا وباجتماع كل هذه العوامل ولم يؤرخ له بينما قام مؤرخوا الشيعة بالتأريخ له وعدوه حكيما من الحكماء ويبدو أيضا أن هذا راجع الى أنه كان معروفا فى بيئته التى جاء

منها وهي بيئة أصفهان .

أما عن مذهبه فقد كان الراغب شيعيا معتنقا للمذهب الشيعي العدلي - والشيعة العدلية هي فرقة من فرق المذهب الشيعي ولكنها فرقة معتدلة تتقارب مع أهل السنة في أمور كثيرة أهمها أنها تقر بخلافة الخلفاء الثلاثة وبخلافة بني أمية أيضا أي أنها من الفرق التي كانت ترضى بالواقع وتساير الحياة على ما هي عليه .

أما عن شخصيته فقد استطعت لمسها من ثنايا كتبه المختلفة ويبدو منها أنه كان مدرسا يظهر هذا واضحا في مناهج كتبه والقضايا التي قام بدراستها في كتابيه الذريعة وتفصيل النشأتين وكما يظهر أيضا من تلك التقسيمات التي أتى بها فيها .

كذلك بينا أنه لم يكن رجل دين فقط بل كان رجل دنيا ودين حيث يدل كتاب المحاضرات على هذا .

أما عن منهجه في كتاب المفردات قد بينت أنه سار على الترتيب الألف بائي المعروف والذى يعد أسهل ترتيب تم الوصول اليه حتى الآن - أما عن تفسيره للكلمات فقد كان ينظر فيه الى الأصل المادى للكلمة ثم يتابع دورانها في القرآن مع الاتيان بمعانيها المختلفة اذا اختلفت معانيها وفقا للتركيب - كذلك ابتعد الراغب عن الألفاظ الخاصة بالشرع حيث أن لها أمور خاصة ينبغي الحيطة لها والأخذ بها .

أما عن الدوافع التي دفعته الى تأليف هذا الكتاب فهو ما رآه في عصره من تخبط في استخدام اللغة فقد كان يرى أن التفسيرات التي كان القرآن الكريم يفسر بها قد وضعت بلغة جديدة على المجتمع الاسلامي لغة عاصرت حضارات ومجتمعات أصابت دلالاتها حتى أنه قد أصبح ينظر للكتاب الكريم على أنه مصدر من مصادر الفلسفة وكتاب للرموز والاشارات عند الصوفية كذلك لحظ الراغب طبيعة الاختلاف بين الفرق الاسلامية بعضها ببعض ورأى أن كلا منها ينظر الى اللغة من وجهة غير التي ينظر اليها الآخر وأدرك بفطنته اللغوية أن اللغة

له أول وله آخر أى بداية ونهاية وأن البداية هى المعنى المادى وأما النهاية فهى التجريد وأن الذين فسروا النصوص القرآنية منهم من أخذ بالبداية ومنهم من أخذ بالنهاية - أما الذين أخذوا بالبداية فهم المجسمون والذين أخذوا بالنهاية هم المبالغون فى التنزيه .

وهو بهذا يكون قد حدد أسباب الاختلاف بين الفرق فى بعض المسائل الاعتقادية وأرجع هذا الاختلاف الى استعمالهم للغة وترجيح وجوه الدلالة فيها .

ومن هنا أيضا اتخذ هذا المنهج فى ترتيب المعانى القرآنية فكان يبدأ بالمعنى المادى لينتهى به الى المعنى التجريدى . واذا كان المعجميون قد عنوا بالمادة اللغوية بعدها وهى اللفظة فان الراغب يرى أن الذى يحدد الدلالة ويكشف عن أبعادها المختلفة انما هو الاستعمال ، وعلى هذا فيجب أن يكون المتصدى متمكنا من ضروب الثقافة اللغوية كالنحوية والاشتقاقية والصوفية وهو لهذا يربط النحو باللفظة واستعمالها وبخاصة بين الألفاظ التى تختلف مدلولها باختلاف عللها النحوية كما أنه يربط بين هذه الاستعمالات وبين طبيعة الوجود نفسه وماهية هذا الوجود سواء أكان وجودا يتعلق بالانسان وقدرته كذلك رأيناه يربط بين اللغة وبين التفكير والفكر يعنى به الانسان حين يستعمل لهذه اللغة التى يتخذها وعاء لهذا الفكر ولذا نجده فى ترتيبه لمعانى اللفظة يربط بين ثلاثة أشياء :

١ - الاستعمال الأول للفظة وهو المعنى الدلالى .

٢ - التطور الدلالى للفظة فيما بعد مرتبطا بتطور الانسان ماديا ومعنويا .

٣ - الاستعمال القرآنى للفظة الواحدة دوران هذا الاستعمال فى الأماكن المختلفة .

كذلك رأيناه يحدد العلاقة بين اللفظ والمعنى من حيث أن اللفظ دال عليه فنراه فى حديثه عن العلاقة يقرر أن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية وأنه لذلك لابد من تغير مطرد فى دلالة اللفظ حتى يكون بينه وبين المعنى نوع من التكافؤ وهو بهذا فانما يحدد الاشتراك فى الذى يؤدى الى غموض الاسلوب أو الاستعمال لذا فهو يرى أن على

اللغوى أن تحدد هـــــذه العلاقة وان تعددت وجوهها حتى يكون الناظر فى الأسلوب على بينة من هذا التعدد وحتى يستطيع أن يدرك بعض ما خفى من دلالات الألفاظ علـــى تلك المعانى ،لذا نراه لا يعترف بالاشتقاق الكبير لهذا التسمح الذى أخذ به ابن جـنى القائم على الافتراض وتقاليب الكلمة وقد حدد الراغب الألفاظ التى قد تقع فيها الاشتبـــاه باثنين هما الألفاظ المشتركة والألفاظ المتواطئة أو كان يراد بها أحيانا العموم والخصـــوص ولهذا نراه يعنى فى مفرداته بهذا النوع من الألفاظ بيان وجوه الاشتراك وهل هو اشتراك يرجع الى اختلاف اللهجات أو الى التواضع أو الاصطلاح أو النقل عن طريق الشبه .

واذا ما انتهى الأمر باللفظة المفردة الى التركيب الحاصل بين جملة من الألفاظ وهـــو الذى عنى به الراغب من حيث دوران الكلمة فى أماكن متعددة من الاستعمال القرآنـــــى واختلف بذلك معناها ضيقا واتساعا فان الراغب يتحدث فى الصدد عن الاشتباه الحاصـــل فى الترتيب وهو الذى أخذ به نفسه فى الترتيب لذلك نرى الراغب فى تحديد معانى الكلمات التى استعملها القرآن فى القصص تكاد تكتفى بالمعنى المادى فقط أى الظاهر تاركا وراء ذلك للمتصدين للقصص القرآنى وهو بهذا فانما يفرق بين التفسير والتأويل الذى يعتبر رائـــدا فيه وأول من وضح تلك العلاقة فالتفسير لديه أعم من التأويل الذى يستخدم فى الكتـــب المقدسة على عكس التفسير الذى يستعمل فى كل النصوص الأدبية فالتأويل هنا أخص مـــن التفسير .

والراغب الأصفهانى فى منهجه هذا فانه يكون قد تفوق على أقرانه ممن كتبوا فـــــى الغريب أمثال ابن قتيبة والسجستانى فلم يبلغ أى منهم منهجه أو مادته .

كذلك كان ادراك الراغب الأصفهانى لأصول بعض الكلمات الغريبة والغير عربية أثـــره فى أن نقوم بتلك المقارنة التى عقدناها بين اللغة العربية واللغة العبرية فكلتاهما لغـــة نص مقدس علاوة على أن أصلهما واحد فكانت مقارنتنا بين منهج الراغب الأصفهانى ومنهـــج

غيره من العلماء اليهود فى تناولهم غريب الكتاب المقدس وأهم نتائج هذه المقارنة مع التأريخ لحركة المعاجم العبرية هو أن تلك النهضة اللغوية لهذه المعاجم قد قامت على أكتاف الثقافة العربية فكما رأينا عند سعديا الفيومى وداوود بن سليمان أنهم اتخذوا اللسان العربى أساسا لتفسير وشرح بعض الألفاظ الغامضة وبالأخص سعديا فى كتابه الذى شرح فيه السبعين لفظة المفردة وكذلك داوود بن سليمان فى كتابه الأجرون الذى قام بشرحه باللغة العربية .

فهل انتهى بحثنا عند هذا مجرد أن أجلينا الغموض عن شخصية الراغب وشرحنا منهجه ؟ فأنا لا أعتقد أن هذا يكفى فليس مجرد شرح تلك الكتب الجديدة يكفى والا فأين الجديد الذى جئنا به - واعتقد أن خير ما يتوج به مثل هذه الأبحاث هو اعادة نشر هذا التراث القديم بصورة جديدة تلائم روح عصرنا الحديث وقد نادى الكثيرون من علمائنا بهذا وبعض المستشرقين وذلك للوضع الذى أصبحت عليه معاجمنا فليس من المعقول أن تظل حتى الآن نعتمد على هذه المعاجم التى ألفت فى القرن الرابع والخامس والسادس لا يضاف اليها شيئا ولا نجدد ما بها لنطلاقا الى ما هو أفضل منها وأيسر للباحث كما حصل للمعاجم العبرية فسلمون بن برجون قد ألف عام ١١٦٠ م قاموس (عروخ بخبرت) وهو معتبر من قاموس مروان بن جناح وكذلك داوود قمحى (١١٦٠ - ١٢٣٥ م) نراه يأخذ ما ترك حيوج ومروان بن جناح ويخرج قاموسه (مكلل) ويمتاز عنه قاموس مروان بن جناح بالماسورة التى استعان بها .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر يظهر تنخوم بروشلمى قاموسه (المرشد الكافى) عن اصطلاحات موسى بن ميمونة فى كتابه (مشنا - توراه) وأيضا ابراهام بدرشى الذى ألف قاموسه (نهاية الأرب   ) وغير هؤلاء من أمثال يوسف كسبى فى القرن الرابع عشر ويوسف بن داوود هيونر فى القرن الخامس عشر ويوسف بن يهودا سركو . وأبرز أبطال

النهضة الحديثة للغة العربية يتمثلون في يوحنا رويشلين الذى وضع سنة ١٥٠٦ م كتابه (أساس اللغة العبرية) في اللغة اللاتينية وهو كتاب قواعد وقاموس وكذلك اليا لافيتا الذى ألف قاموسا على نمط قاموس داوود قمحي وقاموسا آخر هو (تشبى) وقد عرض فيه لمفردات العهد القديم كما أنه أول قاموس من نوعه وآخر أولئك الذين نهضت اللغة العبرية على أكتافهم هو فلهلم جزينيوس (١٧٨٦ - ١٨٤٣ م) الذى توج تلك الدراسات بمعجم التوراة التي جمع فيها كل ما كتبه السابقون عليه وأضاف اليه الكثير من عنده لذا فقد وجه اليه عناية خاصة حيث تم طبعه أكثر من عشرة مرات كل مرة بطريقة مختلفة عن الأخرى وبشرح مختلف عن الآخر يضاف اليه كل ما يستجد كما حصل في أحسن طبعات مثل طبعة دريفر وبول وكولر. تلك النهضة باللغة العبرية لم يكن هناك ما يقابلها باللغة العربية وذلك بسبب الأحوال السياسية والحالة الاجتماعية التي عاشتها الدولة العربية ابتداء من القرن الثامن حيث وقعت المنطقة كلها تحت الاحتلال .

ولكن الآن وقد تغيرت الأوضاع فان تلك النهضة اللغوية التي نشاهدها الآن ممثلة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية تبشر بخير كبير ومستقبل عظيم للغتنا العربية .

وقد تغيرت النظرة التي كان ينظر بها الى التراث وأصبح هناك من ينادى بالتجديد واعادة النظر في أمور تراثنا .

وقد أوضح الأستاذ عبدالله العلايلي في كتابه "مقدمة لدرس لغة العرب" أنواع المعاجم التي نحتاج اليها بالآتي :

١ - المعجم العادى ويبحث على سنة المعاجم القديمة

٢ - المعجم العلمي ويبحث في الاصطلاحات موزعة حسب الاختصاص .

٣ - المعجم الاصطلاحي وهذا يكون على نسق الكليات لأبي البقاء والتعريفات للجرجاني .

٤ - المعجم التاريخي   ويبحث في نشوء المادة وتطوراتها الاستعمالية .

٥ - المعجم العلمي   وهو يضم جميعها باختصار .

والواقع فان ما ذكره الاستاذ العلايلي ليس هو كل ما نحتاج اليه فما زلنا في احتياج أولا الى المعاجم المتخصصة قبل عمل هذه المعاجم فلن يتأتى لنا صنعها الا اذا وضعنا لها مقدمات تتمثل في تلك المعاجم المتخصصة مثل معجم الشعر الجاهلي ومعجم الفترة الأولى من حياة اللغة قبل أن يدخلها اللحن ومعجم خاص بألفاظ القرآن الكريم . وهكذا حتى نستطيع أن نصل بعد ذلك الى تلك المعاجم التي يعتبر من أهمها المعجم التاريخي الذي لن يتأتى لنا وضعه الا باتباع ما ذكرت .

والدكتور حسين نصار في خاتمة كتابه المعجم يدعو أيضا لوضع معاجم جديدة أهمها تلك التي نادى بها الأستاذ العلايلي وكذلك يدعو الى تقليد المعاجم الأجنبية خاصة معجم الأدباء والفنانين ومعاجم الجيب البسيطة السهلة والمعاجم الوسيطة وفصل المعاجم عن دوائر المعارف .

أما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا في كتابه القيم الذي وضعه أخيرا " كلام العرب " (وبعد فلسنا بحاجة الى تنبيه الى ما نعانيه من نقص في المعاجم فنحن في تلك الناحية نعيش في العصور الوسطى لا نخرج منها فمنذ القاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور ونحن كما أشرنا وأشار اليه غيرنا نكرر ما جاء فيهما مرتبا ترتيبا آخر أو مختصرا أو مطولا . . . ولكن الجوهر واحد وهو أن صناعة المعاجم عندنا في أزمة وهي بعيدة كل البعد عن مسايرة التقدم الفكري والحضاري في العالم العربي الحديث) لذا فهو يرى أن المعجم العربي الحديث ما يزال بحاجة الى جهود متضافرة بين الادباء والعلماء والمهندسين والأطباء واللغويين وغيرهم كما يحتاج الى اهتمام باللغة نفسها من الصحافة اليومية والاسبوعية في العالم العربي اذ بدون الوعي اللغوي العام لا يستطيع أي تنظيم

مهما بلغ من القوة والدقة أن يصيب الهدف باحكام . وأما عن المعاجم الحديثة فيقـــــول (كل هذه المعاجم ليست الا محاولة لاظهار القديم في ثوب جديد دون أن نضيف شيئـــا جوهريا الى تلك الصناعة) ويضع استاذى الدكتور حسن ظاظا منهج المعجم الأبجدى كالآتى :

١ - مادة لغوية مأخوذة من النصوص .

٢ - ترتيب أبجدى واضح دقيق .

٣ - ذكر المعنى الرئيسى للمادة أولا ثم المعانى الفرعية .

٤ - احكام ضبط النطق الألفاظ وهجائها ورسمها .

٥ - التنبيه على الفصيح والمعرب والدخيل والمولد .

٦ - عدم الالتجاء الى التصوير والرسم التوضيحى الا فى حدود .

٧ - أن يكون الشرح واضحا .

٨ - عدم شرح لفظتين فى موضعين من المعجم كل منهما بالأخرى .

٩ - اختيار المؤلف للفظ المناسب أو المصطلح لكلمة غير موجودة فى اللغة .

١٠ - المصطلحات العالمية توضع فى حاشية بذيل الصفحة لزيادة ايضاح الكلمة المعربة .

وهذا المنهج الذى وضعه أستاذنا الدكتور حسن ظاظا ينطبق على أحدث المعاجـــم العالمية الموجودة بين أيدينا الآن كمعجم أكسفورد التاريخى وهو أيضا منهج لا يمكـــن تطبيقه بدون عمل القواميس التخصصية أولا وهو ما يكلف به طلابه بالدراسات العليا مـــن درس لغة النصوص وتحليلها وكذلك لغة الشعراء والأدباء .

وبعد ، فان هذه الآراء التى نادى بها أولئك الدارسون المتخصصون وما يتصوره أستاذى الدكتور حسن ظاظا لنهضة اللغة هى التى دفعتنى الى التفكير فى تطويـــر معجم المفردات للراغب حتى يرتقى الى مستوى المعجم العلمى الحديث كما تم بالنسبــة لمعجم التوراة الذى وضعه فلهلم جزينيوس .

وأول من التفت الى وضع معجم قرآني خاص بالألفاظ القرآنية هو المرحوم الأستاذ أمين الخولي رحمه الله في مادة تفسير بدائرة المعارف الاسلامية تحت عنوان دراسة القرآن في نفسه فهو يرفض الاستعانة بمعاجمنا العربية لفهم دلالة الألفاظ وذلك لجمعها أشتاتا متفرقة لذا فانه بالنسبة لفهم دلالة الألفاظ القرآنية يضع منهجا أمام مفسر القرآن حين يبتغي المعنى الأول لألفاظه الى أن نملك قاموسا اشتقاقيا تتدرج فيه دلالات الألفاظ وتتمايز فيه المعاني اللغوية للفظ الذي يراد تفسيره وأهم نقاط هذا المنهج :

١ - النظر في المادة اللغوية للفظ .

٢ - النظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرة ترتبها على الظن الغالب فيقدم الأسبق الأقدم منها على السابق على أن يكون الناظر ملم ما أمكن بأحدث الدراسات اللغوية عن أصل اللغات والصلة التي بينها .

٣ - بعد البحث عن معنى اللفظة ينتقل للبحث عن معناها الاستعمالي لتتبع ورود هلا وهل كانت وحدة أطردت في عصور القرآن المختلفة ومناسبات متغيرة وان لم يكن الأمر كذلك فما معانيها المتعددة التي استعملها القرآن .

وهو يرى أنه بتطبيق هذا المنهج على كتاب الراغب الذي هو نواة تقبل من بعده الأجيال يكمل هذا القاموس القرآني .

ومن هذا المنهج الذي وضعه المرحوم أمين الخولي رحمه الله بنيت فكرتي عن تطوير معجم المفردات للراغب الأصفهاني والتي ألخصها في الآتي :

١ - تزويد القاموس بفهرست اعلامي بأسماء الأشخاص الذين ذكرهم الراغب في الكتاب وكذلك أسماء الكتب التي نقل عنها ولم يذكرها .

٢ - تزويد القاموس بفهرس لآيات القرآن التي قام الراغب بالاستشهاد بها وعدد مرات ورودها .

٣ - الاشارة الى عدد استعمالات اللفظة فى القرآن واعطائها فى آخر المادة برموز واشارات .

٤ - الاشارة الى المباحث التى قام بها آخرون فى مجال الدراسات القرآنية أمام اللفظة المرتبطة لهذه المباحث .

٥ - اعطاء كل مادة دلالة صوتية .

٦ - الاشارة الى اللهجات واللغات العربية المرتبطة للفظة .

٧ - اعادة دراسة مواد المعجم من جديد وطرحها على الدراسات اللغوية السامية المقارنة لتحديد الدخيل والمعرب فمثلا جاء الراغب بمادتين من أصل واحد وهما : مادة " ملك " ومادة " ألك " وكان الأجدر به توحيدهما أو الاشارة الى واحدة منهما فى الأخرى كذلك فان الراغب لم يشر الى أصل هذه الكلمة السامى الذى يتفق ومعناها فى العربية . كذلك أيضا فى مادة " بلس " فلم يشر الى اللبس الذى هو الحيرة وعدم الوضوح أما ذكره ابليس على أنه من بلس فالواقع فان اصلها يونانى هو

وهو فى شرحه كذلك لهذه الكلمة لم يستعن بأى مرويات أو معاجم أخرى لزيادة المعنى ايضاحا ولم يقم بالتفريق بين أسماء ابليس والعفريت والجن التى وردت فى القرآن - وأيضا فى كلامه عن الشيطان فى مادة شطن فلم يذكر أصلها السامى الذى هو

تمت بحمد الله

المراجع

المراجع العربية

د. ابراهيم أنيس

دلالة الألفاظ، ط الثانية ١٩٦٣ م

ابن الأنباري :

نزهة الألباب

ابن تيمية :

رسائل ابن تيمية ـ مجموعة رسائل طبعة في مصر ١٣٢٧ هـ

ابن جني :

سر صناعة الإعراب، ط أولى ١٩٥٤م

الخصائص، تحقيق الأستاذ النجار ط، القاهرة ١٩٥٦ م

ابن حزم الأندلسي :

الفصل في الملل والأهواء والنحل، مطبعة صبيح ١٣٤٧ هـ

ابن الخراط :

معجم غريب القرآن والحديث

ابن فارس :

معجم مقاييس اللغة، تحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون مصر ١٣٦٦ هـ

ابن قتيبة :

تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر ط. الحلبي ١٩٥٤ م

ابن مطرب الكناني :

القرطبي، ط الاولى الخانجي ١٣٥٥ هـ

ابن منظـــور :

لسان العـــرب

أحمد عطيـــة :

القاموس الاعلامـــى

الأزهـــرى :

مقدمة تهذيب اللغة ،ط أولى ١٩٥٦ م

اسماعيل باشا بغدادى :

هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين

ط استانبول ١٩٥٢ م

أغابزرك الطهرانى :

الذريعة الى تصانيف الشيعة ،ط الأولى

الآمـــــدى :

أصول الأحكـــــام

الباقلانـــــى :

اعجاز القرآن ،تحقيق السيد أحمد صقر - مجموعة ذخائر العرب (١٢)

بروكلمـــان :

تاريخ الأدب العربـــى

البستانـــى :

دائرة المعارف البستانـــى

البيهقى (ظهير الدين) :

تتمة صوان الحكمة ،ط . لاهور ١٣٥١ هـ

د . تمام حسان :

مناهج البحث في اللغة، ١٩٥٥ م

حاجي خليفة :

كشف الظنون

د . حسن ظاظا :

مكتبة الدراسات اللغوية ١٩٧١

اللغة والانسان

الساميون ولغتهم

كلام العرب

د . حسين نصار :

المعجم العربي ،نشأته وتطوره دار الكتاب العربي ١٩٥٦ م

الخوانساري (محمد باقر) :

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ،ط الثانية

داوود بن ابراهيم الفاسي :

جامع الألفاظ ،تحقيق سالمون سكوس،ط. فيلادلفيا

ج ١ ١٩٣٦،ج ٢ ١٩٤٥ م

الراغب الأصفهاني :

تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ،الطبعة الحميدية

المصرية ١٣٢٢ هـ .

الذريعة الى مكارم الشريعة ،مطبعة الوطن ١٣٠٨ هـ

محاضرات الأدباء ،المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٦ هـ

المفردات في غريب القرآن بهامش كتاب النهاية في غريب الحديث

لابن الاثير ١٣٢٠ هـ

المفردات في غريب القرآن ،ط. المصطفوى طهران

المفردات في غريب القرآن ،ط. الحلبى ١٣٢٤ هـ

المفردات في غريب القرآن ،تحقيق سيد كيلانى

المفردات في غريب القرآن ،مخطوطات بأرقام ٢١٤ لغة ١١٩، ١٢٠،

٧٢٤٩ .

مقدمة التفسير (بهامش تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد

الجبار المعتزلى ،٧٠. الجمالية ١٣٢٩ هـ .

الربعـــــى : (عيسى بن ابراهيم)

نظام الغريب ،مطبعة هندية ط. الأولى

الزركلـــــى :

قاموس الأعلام

سركيـــس (يوسف) :

معجم المطبوعات العربيـــة، ١٩٢٨ م

السيوطـــــى : بغية الوعاة ،الخانجى

الاتقان في علوم القرآن ،ط. حجازى

المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،ط. عيسى الحلبى

الشافعـــــى : (الامام)كتاب الرسالة ،المكتبة الحجازية .

الشهرستانـــى :

الملل والنحل (بهامش كتاب الفصل لابن حزم ط . صبيح ١٣٤٧ هـ)

صبحى الصالـــح :

فقــه اللغة ،دمشق

طاش كبرى زادة :

مصباح السعادة ومصباح السيادة

العاملي (محسن الأمين)

أعيان الشيعة ،الطبعة الاولى ،مطبعة الاتقان ١٩٤٨ م

د . عبدالله درويش :

المعاجم العربية ،مكتبة الأنجلو

عبدالله العلايلي :

مقدمة لدرس لغة العرب ،المطبعة العصرية

د . علي عبدالواحد :

فقه اللغة ،الطبعة الثانية ١٩٤٤ م

فخر الدين الرازي :

أسرار التقديس ،مطبعة كردستان ١٣٢٨ هـ

فيشر :

المعجم اللغوي التاريخي ،الطبعة الأولى - مجمع اللغة العربية ١٩٦٧ م

الفيروزابادي :

قاموس المحيط

المافروخي :

محاسن أصفهان ،مطبعة عيشي

محمد خلف الله :

ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ذخائر العرب (١٦)

محمد خلف الله :

تاريخ ومكتشاء العرب

محمد كـــرد علـي :

تاريخ حكماء الاسلام ،دمشق ١٩٤٦ م

كنـــوز الاجداد ،دمشق

د . محمود السعران :

علم اللغـــة ،ط . المعارف ١٩٦٢ م

مـــراد مـرج :

كلتقى اللغتين العبرية والعربية ،المطبعة الرحمانية ١٩٣٠ م

مرمرجي الدومنكـــي (الأب)

المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية العامة ،

القدس ١٩٣٧ م

مروان بن جنـــاح :

اللمـــع ،باريس ١٨٩٦ م

د . النشار (علي سامي) :

نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ،ج ١ ،ج ٢

ياقـــــوت :

معجم البلدان ،ط . ليزبرج ١٨٨١ م

معجم الادباء ،تحقيق مرجليوث

دائرة المعـــارف الاسلاميـــة

فهرس الكتاب

فهرست الكتاب

